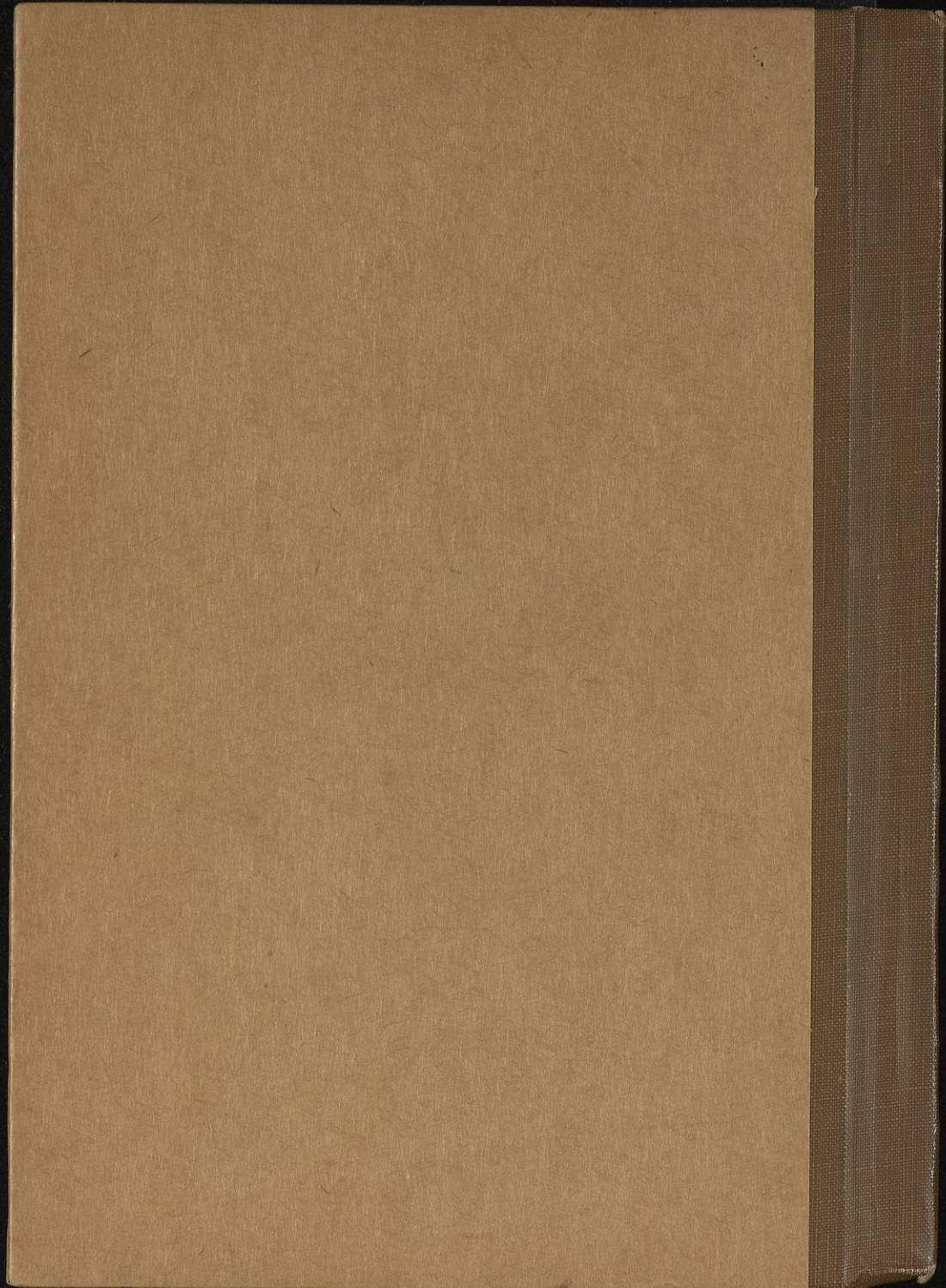
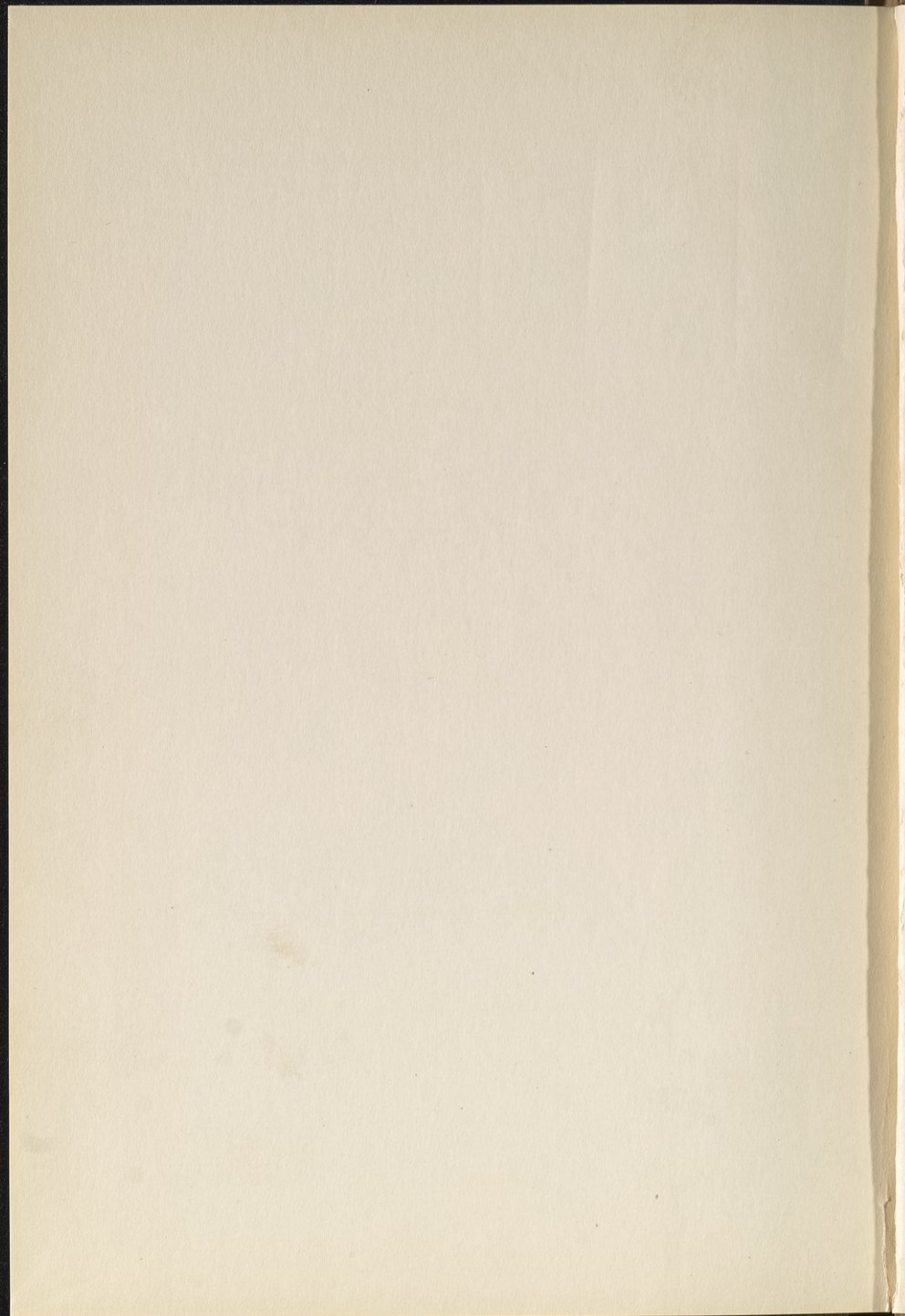




Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





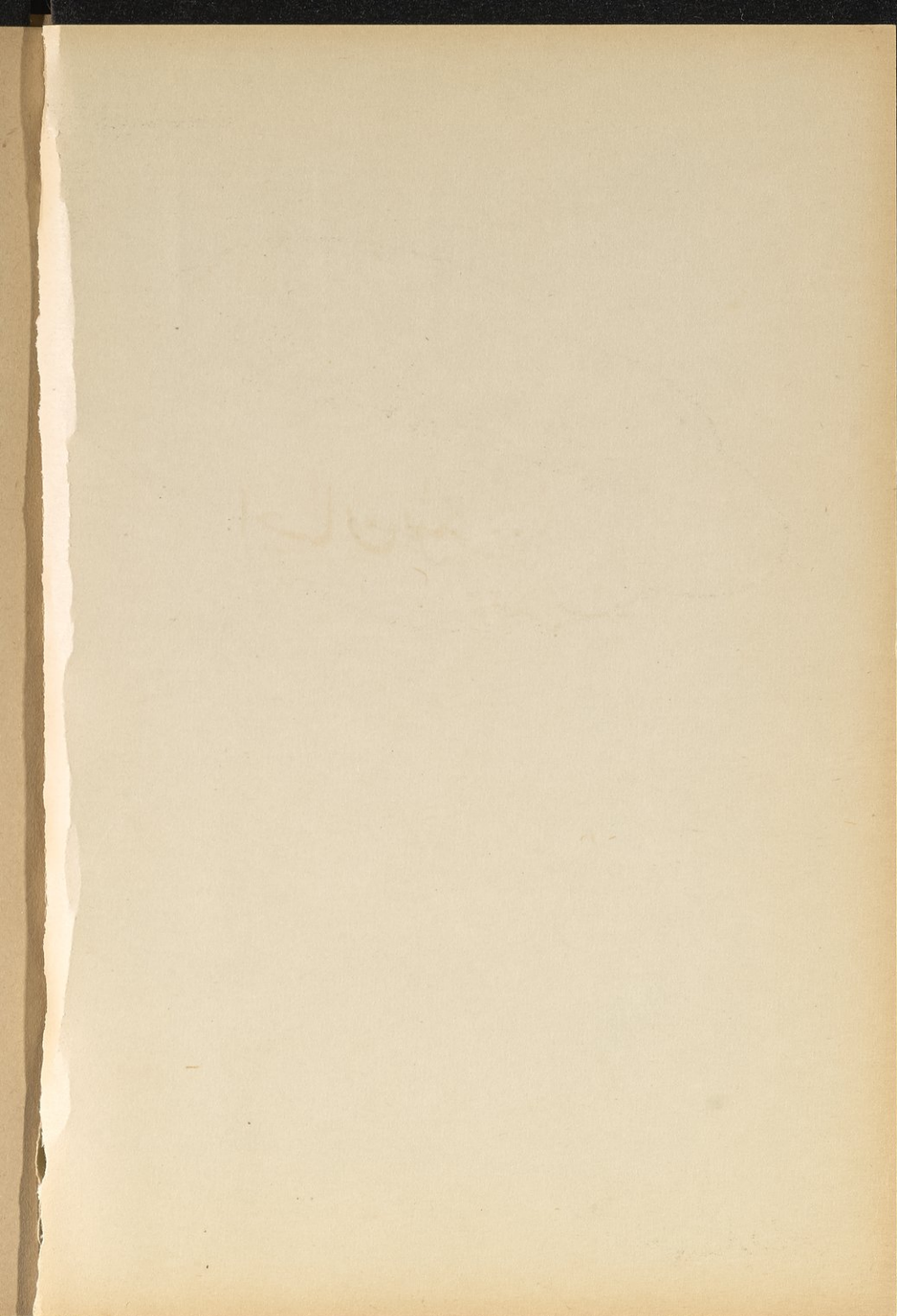
25

0

وَدَيُّوْ



دار المعارف بمصر



إحسانِ یٰسَّرُ ...

وقصصِ آخری

893.7T136

M3

مجمودّ تیمور

إحسانِ الله...

وقصص أخرى

دار المعارف بمصر

إلى جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى — سنة ١٩٤٩

لا

مُحَمَّدًا فَدَيَّ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ

١

- صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ
- اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ
- لَقَدْ نَوَيْتُ أَنْ أَطْلُقَ الْمَرْأَةَ
- لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ
- قُلْتُ لَكَ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ .
- أَلْفُ صَلَاةٍ عَلَيْهِ يَا أَخِي .
- لَقَدْ اسْتَخَرْتُ اللَّهَ فِي تَطْلِيقِ الْمَرْأَةِ .
- هَذَا خَرَابُ بَيُوتِ .
- خَرَابُ بَيُوتِ أَوْ عِمْرَانُ بَيُوتِ ... هَذَا مَا اعْتَزَمْتُهُ وَالسَّلَامُ !
- أَنْسَيْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أَبْغَضُ الْحَلَالِ
- إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقُ » ؟
- أَعْرِفُ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لَا تَنْسَ أَنْ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ :
- « لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » ؟

دار هذا الحوار بين « محمد افندى » والمأذون الشرعى فى مكتبته ، إذ قدِمَ عليه « محمد افندى » ليتفق معه على إجراء الطلاق .

وجعل المأذون الشرعى يسوى طوايا عمامته ، مطيلاً فى تسويتها وهو يتنحى ، معداً حنجرته لإلقاء خطبته العتيدة ، يحاول بها إصلاح ذات البين ، وإبراء نفسه من تبعة هذا المكروه ، قبل أن يغمس قلمه فى الدواة ، شروعاً فى تدوين وثيقة الطلاق ، وذلك تنفيذاً للتعليمات الرسمية المعهودة .

وما عثم المأذون الشرعى أن انبجس لسانه ، يشقشق بالحمل والعبارات ، محشوة بالنصح للزوج أن يكف عن الطلاق ، وأن يؤثر الحسنى ، وأن يمسك زوجته بمعروف .

وكان يتلو هذه الخطبة عن ظهر قلبه ، كما ينشد التلميذ قصيدة من المحفوظات .

فلما بلغ الغاية من خطبته ، أحدّ النظر فى وجه زائره ، كأنه يقول :

هل بعد هذا مقالٌ لقائل ؟

ولكن « محمد افندى » رفع طربوشه عن رأسه فى ملالة وضجر ، فتبدى رأسه أجرداً ماحلاً ، إلا من شعيرات مبعثرة كأنها أعشاب مصوَّحة فى صحراء مقفرة . وطفق يمسح بمنديله الخطط الكبير جوانب وجهه ، وهو ذلك الوجه السمين ذو العينين المتورمتين ،

والشفيتين الغليظتين ، والأنف العريض الذى يطغى بضخامته على
خديه ...

ثم رفع صوته فى حشجة يقول :

صل على النبي يا شيخ ...

— اللهم صل عليه .

— لقد اعتزمتُ تطليقَ المرأة والسلام ...

فأشرعَ المأذون الشرعىَّ عينيه إلى السماء ، كأنما يُشهدُها على أنه
أدّى ما يجب ، وأن ذمته برّاءٌ من ذلك الطلاق البغيض ...

وما أسرعَ أن دُوّنت الوثيقة الرسمية ، فدسّها « محمد افندى »
فى جيبه ، ونهضَ بجِرمه المتكتل ، وألواحه العراض ، ينقلّ خطاه كأنه
بغل أثقلته الأحمال ، ومضى يترفع برأسه ، ويتناول بقامته ، على
الرغم من أنه ذرّفَ على الخامسة والستين ، وهو يفتل شاربه الغزيرَ
فى زهو المنتصر الغلاب ، يحس بين جنبيه سورة الفتوة .

ولمَ لا يعدّ نفسه فتياً ، وهو بحمد الله لا يشكو علة ، ولا يعرف
فراش المرض كيف يكون ، وهذه جوارحه وأوصاله مسلّمة لم يتخونها
الزمن ، وتلك أسنانه بيتُ القصيد فى ملحمة جسمانه لم تسقط منها
سنّ ، ولم يتثلّم لها حدّ ، وإنه ليتعهدُها بمختلف ألوان العناية من
تنظيف وتسويك ، إذ يعلم حقّ العلم أنها مطيته الدءُوب إلى إصابة
متعته الكبرى فى الحياة : الطعام !

عجّلَ « محمد افندى » إلى داره ، وهو يفكر فى مباغته

الزوجة بما صنع عند المأذون الشرعى ، فيطعن كبرياءها ، ويشقى
غليله منها .

يا لله !

شدمّا أوقعت به الأذى ، وأذاقته ضروب الهوان ...
شدمّا سلبته ماله بمختلف الأحابيل الشيطانية التى يعيا بنجبها
أدهى الناس ...

٢

ما إن حلَّ « محمد افندى » بالدار ، وطوّف بها ، حتى تبين
أنها قاعٌ صفصف ، ليس بها من متاع ولا أنيس ...
فتلفتَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وانبعث ينادى أهلَ الدار ، ليعلم سرّ هذا
الخواء الذى دهاها ، فلم يلبّ نداءه إلا راجعُ الصّدَى ، يصدّع له
بالحقيقة المرّة !

ولع فى رأس « محمد افندى » خاطر اهتزّ له ، فهرع من فوره
إلى كنّ الأرانب ، وجدّ فى البحث والتفتيش ، فلم يجدْ إلا نثيراً من
فتات وعشب .

فأربدت معالم وجهه ، وتسعّر بين ضلوعه الغيظ والتحسر .
لقد أتت الزوجة على ما فى الدار ، فأعملت فيها يد النهب

والاستلاب . وإن « محمد افندى » ليغفر لتلك المرأة كل ما اقترفت ،
لو أنها أبقت له ذخيرته المفضلة من الأرناب ...

هى تعلم أنها باستيلائها على تلك الذخيرة ، تُصَوِّب إلى قلب
« محمد افندى » سهماً مَرِيئاً ، وتصيبه فى مَقْتَل .

إن الأرناب طعامه المفضل ، وطالما اقتنى منها السَّمان المكتنزة
باللحم والشحم ، وتفنن فى تزويدها بالأغذية ، وقضى أطول وقته فى
المَسطَهى يأمر وينهى ، لكى يتوافر له من تلك الأرناب ما تتحلب
له شفاهه من طعام هنى .

جعل « محمد افندى » يخطو فى الرَّدْهَة ذهباً وحيئة بقدميه
الثقيلتين ، يضرب بهما الأرض ضربات يزدادُ المكانُ بأصدائها من
رهبة واستيحاش ...

وأنهى الرجل على شاربه يفتله ، كأنما يقتلع جذوره ، ثم ألقى
بجسمه على صُفَّة بنيت فى أحد أركان البهو ، وأطلق العنان لفكره ،
يخلق حيث شاء ...

لا بأس ...

هذا آخر ما يلقاه من عنت الأقدار ...
إنه ليسدل الستار عليه ليستأنف حياة جديدة لا عنت فيها
ولا رَهَق ...

ليؤثن الدار ، وليشترين طائفة من الأرناب الجسام ...
لن يستعصى عليه أن يجدد عيشه ، ويهيئ لنفسه المتعة والرفاهة ...

ليصيرنَ أمرُهُ إلى خير ، ما دامت هذه المرأة قد أخلت له
وجهَ الحياة !

وبعد قليل جعل « محمد افندى » يعتصر جبينه ...
إنه يفكر في الثأر من أوقعتُ بداره تلك الحسارة النكراء ...
لينتقمَنَ لنفسه ، ولأثاث بيته ، ولأرانبه !
لن يؤدي لها مؤخر الصَّدَاق ، ولا نفقة العدة ...
ولكنَّ أَى موقف يقفه من صِبيته ؟ ... صِبيته الثلاثة ...
لقد اصطحبهم في مُنْتقلها من الدار ، فلتتكفل بهم ، وحسبها
ما نالته من سوائف خيره ...

كيف ينفق ماله على هؤلاء الصَّبيّة الخبثاء ؟
أينسى كيف كانوا يكيدون له ، ويمكرون به ، وينصاعون لأمرهم
دونه ، ويصبون عليه غارة شعواء ؟

القرش الواحد أعز عليها وعلى بنينا من نجوم السماء !
واستجمعَ الرجلُ يدبر حسابه ، ويراجع ما له وما عليه ، وأخذ
يتداول الأرقام جمعاً وطرحاً وقسمة ... ماذا يكفي لتأثيث البيت ،
ولتعميره بالأرانب ، ولبناء كيانه من جديد ؟

وانتهى به التقدير والتدبير إلى طمأنينة وسكينة ، فثروته وإن نالها
كثير من التحيِّف ما برحتْ كافية وافية . في مستطاعه بها أن يحيا
وحده حياة رفاهية ونُعْمى .

أما الزواجُ فقد قرر ألا يُخطره بباله يوماً من الأيام ...

كفاه ما لحقه من ويلات الزواج ...
 لقد آن له أن يوصدَ ذلك الباب الذى جرّ عليه شكولا من
 المتاعب ، وجرّعه ألواناً من العذاب !

٣

وغادر « محمد أفندى » داره ، وقد سرى فى نفسه هدوء وارتياح ،
 وشرع فى طريقة يرسم منهاج حياته الجديدة . ولكن مخايل من حياته
 الماضية كانت تحومُ فى مخيلته بين الفينة والفينة .
 لقد مضى ما مضى من عمره ، تطحنه رتحة الحياة الزوجية ،
 حيث لا قرار ولا مهادنة .
 كان من قبلُ موظفاً فى إحدى مصالح الحكومة ، يرى نفسه
 مهيب الجانب ، ويسرى إلى وهمه أنه مسموع الكلمة ، ويقع فى فهمه
 أن إليه تسند جلائل الأعمال .
 ولكنه على الرغم من ذلك أقصته الوظيفة إثرَ تحقيق ومحاكمة ،
 فأحيل إلى المعاش ، بعد أن نالت منه الألسن ، وشاع حوله سوء
 القالة .

وإنه كلما خطرت بباله ذكرى تلك القضية الشؤمى ، تثور نفسه ،
 ويصبّ جام النقمة واللعة على أولئك الذين دبّروا له مؤامرة لحمتها

الحقد وسدّاهما الانتقام ، أولئك الذين خيّل إليهم قد ضاقوا بهيته وخشيته ، فاتخذوا لإقصائه وسائل وضعية دون تورّع ولا حياء ، وحاكوا له حيلة خفيت عنه ، وجازت عليه ، فأوقعته في المحذور ...

أخذ « محمد افندى » سمته إلى قهوة « المعلم شيخه » لينها بتدخين الجوزة . وكان صاحب القهوة قد واعدّه منذ يومين أن يهيئ له نوعاً ممتازاً من الطباقي ...

ولكن ليس يحمل أن يتلقّى أنفاس الجوزة ببطن يصفرّ فيه الجوع ، فليبدأ بطلب صحفة مشحونة بالشواء الرشاش يقطر دسماً ، وليتبعه أكواباً من الشاي العطر يمزج رشقاته منه بأنفاس الجوزة ، في جلسة رخيّة يتعوّض بها من ذلك اليوم العاصف الأنكد ...

وجدّ الرجل في السير ، متدفع الخطأ ، منفسح الساقين ، وقد سطع على محياه الطلاقة والبشر . ولم لا وهذه ساعة من فرائد ساعاته التي يشعر فيها بنشوة الفوز والانتصار ؟

إنه في هذه الساعة قد خلص من وطأة الزوجة التاعسة ، كما خلص قبلاً من زوجات أربع ، بنى بهنّ ، وأنجب منهن ، ولكن مصايرهنّ كان تنتهى تباعاً إلى الطلاق ...
وأىّ ذنب هو جانيه ؟

النساء سواء ، الأولى كالثانية ، وكلتاها تشبه الأخريات . عاشر كلا منهنّ أعواماً طالّت أو قصرت ، وخرج من عشرتهن جميعاً بصفقة المغبون . ليس لكل منهنّ همّ إلا اجتراح المغام ، وابتزاز المطالب .

وليس لمنّ دستور إلا السيطرة والتأمر والعجرفة ...
 ما كان أقسى تكاليف تلك الزوجيات عليه ! ...
 حتى طلاقهن كان يحشمه أفدح المشاق ...

ألم يكابد همّ الدين والرهن والبيع ، ليواجه القضايا والأحكام ،
 فيؤدّي ما وجب من مؤخر الصّدّاق ، وما تقرّر من ألوان النفقات
 لهذه الزوجات ، ولذلك الجحفل اللّجب من أطفاله البنين والبنات ؟
 لقد كان يتحمل في جلد وصبر تلك الهموم كلّ مرة ، أى عند
 كل تطليق ... منتظراً من وراء هذه التصفيات راحة البال وإزاحة
 الأعباء عن كتفيه ، فيهنأ بالحرية والخلاص ...

ما كان أغناه عن الزواج ، ولكنه يعجب من أمره ، كيف كان
 في كلّ مرة وهو يواثق نفسه على حياة العزوبة ، يجد خطاه قد تورطت
 في الطريق إلى زوجية جديدة ؟

أما اليوم فلا عودَ لذلك الماضي الكريه ...
 لن يُلندَغ من ذلك البحر مرة أخرى ...
 فيما أصاب من المتع مَقْنَعٌ له ، وفيما لقي من الإرهاق رادع أى
 رادع !

٤

وتصرّمت الأيام تستنفدُ جهد « محمد افندى » فى تصفية حساب
تلك الزوجية الأخيرة ...

وعلى الرغم مما عانى من المراوغة والتحايل خلاصاً من باهظ النفقات ،
لاحقته المحاكم تفرض عليه المغارم . حتى ألغى نفسه يوماً لا يملك
أثارة من عقار فى « القاهرة » ... لقد نفدت ثروته ، إلا داراً متواضعة
فى قرية هى مسقط رأسه ، وأشتاتاً من أرض تزرع ...
وأحرّباه !

أتقضى زوجياته الخمس هذا القضاء المبرم على ما كان يملكه فى
« القاهرة » مما يوفر له اليسار الرغيد ؟

ونكّسَ الرجل رأسه مهموماً ، يجترّ آلامه ، ويقدّح فكره ...
ووثبت فى خاطره فكرة ما عثم أن هشّ لها ، وفرح بها ...
لم لا يستأنف حياة جديدة فى الريف ، يعمرُ داره ، ويتعهد
أرضه ، ويستنبث أطيب الثمر ، ويحيا فى خفض ودعة ؟
ثمّة خير كثير ، وإنفاق قليل ...
ثمّة مراح عريض ترتع فيه أرانبه المحببة ، فينعم منها بالسمين
المكتر ...

ولكن عرضت له مشكلة لم يتبين حلها وجهاً ...
 أنى له أن يحصل على الطباقي الممتاز الذي يعدّه له « المعلم شَيْحِه »
 في الجوزة ؟
 أتراه قادراً على أن يسلو أنفاس تلك الجوزة التي يصابحها ويماسيها
 لا يملها ولا تمله ؟
 وسرعان ما ضرب جبهته بيده . . . أمن العسير على « المعلم شَيْحِه »
 أن يوافيه في الحين بعد الحين بمؤنته من الطباقي ؟
 لله الحمد ...

كل شيء قد تمهد ، سوف يعيش سلطان زمانه في منجاة من
 الضنك والأذى . ولم لا يطمع في حياة رخيّة ناعمة ، وإن له لإرادة
 صُلْبَة تصدّع المشكلات ، وتأتى بالمعجزات ؟ ... إرادة لا يقف دونها
 شيء ، ولكنها تقف سداً منيعاً تردّ عنه أبداً ويلات الزواج !

٥

شدّ « محمد افندى » رحله إلى قريته « كفر عقيق » ... فقديماً
 مع الليل ، فواجهته العتمة والصمت .
 وقف يتطلع حوله ، فوجد كل شيء كأنما يتجهّم له ، فأحس من
 فوره وحشة تباغته ، فتدفّع بجرمه الضخم ، متجها نحو داره ، هرباً

من تلك الجهامة والركود ... داره التي انقطع عن زيارتها منذ أعوام طوال ، فكاد يضلّ طريقه إليها .

وما إن بلغها حتى استقبلته بمثل ذلك العبوس الذي استقبلته به القرية : بناء متطامن متضائل ، يختنق بين جاراته الدُّور ، كأنما هو أنقاضٌ يعيش فيها الخراب .

ووقف في صحن الدار ، يتأمل فيما حوله ، وقد زلزلت كيانه رعشة واضطراب ...

أمكتوب عليه أن يقضى بين هذه القبور بقية أيامه في الحياة ؟ وراح يوازن بين ما يشهد الساعة من كآبة وخود ، وبين مجالى حياته في « القاهرة » ... كيف كان يعيش في مسكنه الطيب ؟ وكيف كان يجد الإيناس في قهوة « المعلم شيخة » ؟ وكيف كان ينعم هناك بالماء المثالج والحوزة الضاحكة والوجوه المستبشرة والمذياع المسلى والباعة يهتفون بسلعهم في غدوّ ورواح ؟

أين تلك الحياة الزاخرة بألوانها وأضوائها من هذا الظلام الدامس بين الرموس والأطلال ؟

وأخذ يتنقل في الردهة الخاوية ، فكلما خطا خطوة علقت بوجهه أقذاء ، فالتمس الخلاص إلى مُستشرف يطالع منه صفحة السماء ، فتهدأت إليه أنسام رفيقة معطرة ، وأخذت عينه قوسَ الهلال وهو يترأى في عرض الأفق إيداناً بمطلع الشهر الجديد . فلبث الرجل وقتاً يتوسم الهلال ، ويستقبل ملاطفات النسيم . فاطمأنت نفسه بعض

الطمأنينة ، وحلق بفكره فى رحاب من الآمال والرغاب . وراح يسائل نفسه :

فيم الضجر ؟ كل صعب يهون ... أما الدار ففى المكنة أن يقوم على أنقاضها مَغْنًى أنيق تتوافر له معدات الراحة ، وأما القرية فإنها فى حاجة إلى إحياء وتجديد ، وإنه بهما لزعم . ههنا مجال لآرائه العصرية بينها ، ونظراته الثاقبة يُشعها ، وهمته الماضية يبدُّها . فليشها غارة شعواء على الركود والضعة ، ولينتشل القرية مما هى فيه ، حتى تصبح جنة أهلة عامرة ، موفورة الحظ من أسباب المتعة والإيناس .

وتعاوره التثاؤب ، وسرَى فى أوصاله الخمول ، وإذا هو يتهالك على أقرب كُومة من مكانه ، فاسترخى يسعف جسمانه ببعض الراحة ...

٦

ودارت عجلة الأيام ، وما برح « محمد افندى » يعيش فى ذلك الوكر الموحش ، كما يعيش جيرانه من أهل القرية فى أوكارهم المتداعية . وكلما خطر بباله : ماذا صنع بمشروعاته فى التجديد والتعمير ؟ اربد وجهه من حنق ، وهو يهيجس :

العجلة من الشيطان ، والعاقل من حزم أمره قبل المضى فيما يريد ، وفى الأناة منجاة من مزالق التسرع ، ولكل شىء إبان ، وما دامت

الإرادة الصُّلبة قائمة والعزمُ موفورَ الوقود فلا بأس من الإصلاح !
ولأمر ما برزت عبقرية « محمد افندى » في التجديد ، واشتعل
نشاطه في التعمير ، ولكنه خصّ بتلك العبقرية وذلك النشاط ركناً
واحداً من أركان الدار ، ومرفقاً خاصاً من مرافقه ... ذلك هو كن
الأرانب ...

لقد استبدّ هذا الكين بيقظته ورعايته ، فأشرف على بنائه ، واجتهد
في تزويده بالأدوات والمهمات ، حتى أصبح مرعى طيباً لجيش من
الأرانب على اختلاف الأنواع .

واتفق « محمد افندى » أن يعثر بعد جهد جهيد على شيخ طحنته
السنون ، كان يمتن الطهو كما يزعم في دور السراة والكبراء ، وقد نسي
مهنته من فرط التعطل ، وبعد العهد ، وضععة الكبير ...

فعنى « محمد افندى » بأن يستخرج هذا الرجل ، ويميط عنه
غبار الزمن ، ويحلوه على عرش المطبخ كما كان في سالف عهده العهد...
وحقّ « محمد افندى » أن يفخر ببنائه حظيرة عصرية للأرانب ،
واستخراجه لذلك الطاهى التليد ... وكيف لا وقد راع القرية بمظهر
من مظاهر المدنية والتحضر لم يكن لها بمثله عهد ؟

وكان « محمد افندى » يبذل أطول وقته في صحبة ذلك الطاهى
المتهدم ، يرقب الأرانب وهى فى القدور تتقلب فى سمنها مزعفرة يشيع
منها القُتار ، على حين يتحلب فيه من تشوف وتعجل ...
وكثيراً ما احتدم الشجار بين « محمد افندى » وطاهيه فى شأن

ألوان الطعام ، وما يجب أن يتوافر لها من دقة وتجويد وإتقان . فكان يحاول أن يفرض رأيه على الطاهى مسفهاً خبرته ، ناعياً عليه تقصيره . ولكن زجرة الطاهى وتهديده بترك الخدمة كان يحذو « محمد افندى » على أن يغادر المطبخ فى تسلل ، قاصداً مستشرف الدار الضيق ، يلتمس فيه الهواء لوجهه المحتقن ، وأنفاسه المحتبسة .

٧

وكان يختلف إلى الدار شيخ من حفظة القرآن ، يُدعى « الشيخ عزبان » يقرأ الراتب اليومى من آى الذكر الحكيم ، وكان « محمد افندى » يخصه فى الفينة بعد الفينة بالجلوس إليه ، تبركاً بقراءته ، ولكنه لا يلبث أن يبادره سبات عميق ، فتنتقل من خياشيمه حشرة غطيط تبارى صوت القارئ فى ترتيله .

وكان « الشيخ عزبان » لا يفتأ يربط لسانه بأسنى المدائح لسيد الدار ، متغنياً بأخلاقه وشمائله ، فيستبقيه « محمد افندى » وقتاً ليقص عليه طرفاً من أعماله الحميدة فى فترة اشتغاله بالوظيفة ، ويسبّ الدهر الذى جازاه أقبح الجزاء ...

ولم يكن ينسى أن يتطرق بالحديث دائماً إلى زوجاته ، وما أفاءه من عطف عليهن ، وبرّ بأطفاله منهن ، على الرغم مما أسلفن إليه من

مَسَاءة وإيذاء . ومهما يكن من أمرهن فإنه قرير العين ، مطمئن
الضمير بما صنع ، ضارباً صفحاً عما لقي . وحسبه أنه أدى واجبه
الإنساني على خير ما يؤديه ذو مروءة وإحسان ...

كان « محمد افندى » يسترسل في الإشادة بماضيه ، والتمدح
بأجاده ، فيستمع إليه الشيخ مبدياً تصديقه وإعجابه ، وهو بشخصه
الضئيل متكبر في عباءته المهلهلة ، يختلس النظر إلى جلسيه بمقلتين
كأنما انتزعتا من عينتي ثعلب .

ولم يكن الشيخ يخرج من مثل تلك الجلسة خاوي الوفاض ، وإنما
كان يُجْزَى بما تيسر من ضلع أرنب ، ونثار من رز ، في لفائف من
خبز رَحَاح ...

٨

طابت الحياة على هذا النحو رَدَحاً من الزمن ، وأصبحت
مألوفة « لمحمد افندى » لا يشعر لها بملالة ولا ضجر . فقتع من حياة
الترف والإيناس في الحضر ، بما وعته مخيلته من ذكريات يعرض صحائفها
بين آن وآن .

ونجمت في دنيا « محمد افندى » حادثة لم تكن له على بال .
إذ أصيب طاهيه بوعكة ألزمته مرقده ، فضاق « محمد افندى » بأمره ،

وأَسْقَطَ في يده ، وقضى يومه حيران أسفاً ، يدور في بيته كأنما يتفقد شيئاً أضاعه ، دون أن يعثر له على أثر .

وكان في مداره بالبيت يدنو من كنّ الأرائب ، يلقي عليها من الطاق نظرات مسترقة ، فيجدها راتعة بين أضغاث البرسيم ، تلتمع أعينها في بهجة ومراح ، وتتواثب سمينة متملئة من شبع وري ، فيقف « محمد افندى » مهموم الخاطر ، مغَيِظ النفس ، وينصرف عنها متلهباً من حقد وحق .

ولم يجد « محمد افندى » في ذلك اليوم بدءاً من أن يعدّ لنفسه مطعمه على شرّ وجه .

ولما حضر القارئ لم يجد بقية من طعام يصيبها ، بل إنه لم تسنح له فرصة يتمدح فيها بأعجاد « محمد افندى » إذ كان ربّ الدار مهتاج الأعصاب ، جهم الحديث .

وطالت العلة بالطاهى ، فثارت ثورة « محمد افندى » ولم يعد له صبر ، فجأر بالشكوى إلى صديقه « الشيخ عزبان » ، فطَيَّب الشيخ خاطره ، ووعدّه أن يعينه على حلّ هذه المعضلة .

وفي الغداة ، بينما كان « محمد افندى » يترشّف القهوة ملولاً متمللاً ، أقبل عليه شبّح ضئيل يمشى على استحياء ، متلفعاً بالسواد ، في بداذة هيئة ...

وتداني الشبح يلثم يد الرجل في تخشع ، فسأله :
من يكون ؟

فأجاب الشيخ في صوت ضارع :

أنا بنت ابن الشيخ عزبان ...

فرمقها الرجل بنظرة استعلاء ، فتبين له من خلال السواد عيان
براقتان يلتمع فيهما ذلك التوهج الذي ينبعث من عيني الشيخ جدّ الفتاة .

فسألها :

فيم قدومك ؟

— بعث بي جدّي لأقوم بما يلزم .

فأجابها على الفور :

أتجيدين طهو الأرناب ؟

— أعانني الله على مرّضاتك .

فبسط الرجل جانبيه ، وزوى ما بين حاجبيه ، وشمخ برأسه ،

وقال :

على أية الطرق تحسّنين طهو الأرناب ؟

— على أية طريقة تشهى ... مرّني تجدني عند أمرك ...

وكان صوتها متخاذل النبرات ، فنهض « محمد افندي » بصدره ،

وصاح بها :

ارفعي من صوتك ... مم تخافين ؟ ... أوحش أنا تحذرينه ؟

وسما بقامته واقفاً ، وهو يقول في لهجة الأمر :

اتبعيني إلى كنّ الأرناب ...

واندفع في خطاه يهزّ أرض البيت هزّاً ، والفتاة تقفوه حذرة المشية ،

فدخل كنّ الأرناب ، واقعد كومة عالية ، وجعل يرسم للفتاة خططاً اصطیاد الفرائس : كيف تختلها بأعواد البرسيم ؟ وكيف تقطع عليها طريق الرجعة والهرب إلى الثغرات ؟

وكانت الأرناب قد احتفرت في أرض الكنّ سراديب دفيئة تستتر فيها كأنها مخابئ الجيوش في ساحة الهیجاء ، وقد تعلم ذلك الحيوان بغريزته : كيف يحاذرُ ويتربق ويتحیل ؟ وكيف يقاوم ويتفلت ؟ فلم يكن اصطیاده بالأمر اليسير ...

ولشدّ ما تعب « محمد افندی » وتعب طاهیه في اقتناص ما يشتهی من ذلك الصيد الأبّیّ العنید ...

وبدأ « محمد افندی » صياحه معلناً تعالیه ، وأخذت الفتاة تعمل في همة ، مبتغية أن تظفر بثقة سيد الدار ، وتحوز رضاه . واضطرت أن تزحزح عن جانب رأسها ذلك الخمار المهلهل ، فبان منها وجهٌ مسنون يميل إلى السمرة ذو قسما ت خلت من دمامة ...

وبینما كان « محمد افندی » ماثلاً على ربّو ته يأمر وينهى ، كانت الفتاة تتواثب في خفة خلف الأرناب ، تنفیذاً للأوامر والرغبات . ولم يمض مديدٌ وقت حتى أفلحت الفتاة في اقتناص زوج من الأرناب متنتی يترجح سمانة وامتلأ . فحملته إلى الرجل ووجنتها تضرّجها من نضرة النشاط ، وعيناها تلتمعان التماعه الفوز . فتناول « محمد افندی » زوج الأرناب من يد الفتاة ، واحتمله من آذانه ، يتعرّف زنته ، ويتحسس أعطافه في نهم واشتهاء . ثم أعاده إلى الفتاة طلق الأسارى .

وما ملك أن صاح :

مرحى ! مرحى ! ... لقد أحسنت الصيد والانتقاء ...
ثم ما عثمَ أن استدرك يقطب جبينه ، ويستنفذُ رزاقته وإمرته ،
وجأراً في خشونة :

إلى المطهى ...

وانطلقا معاً ، وهناك خلع « محمد افندى » معطفه ، ثم تشمر
واهتم ، واستأنف صولته في إصدار الأوامر . ونهضت الفتاة بكل
ما تتطلبه الحال من شؤون . فذبحت وسلخت وشرعت تطهو ، والرجل
لا يفترُّ له صياح ، دون أن يشارك في شيء .

ولما اطمأن « محمد افندى » إلى خبرة الفتاة وحسن قيامها بالطهو ،
تزعزع عن المطهى ، دالفاً إلى مستشرف الدار ، فما إن بلغه حتى
تهالك على مقعده الفسيح يستريح .

وبينما كان في رخاوة وانطلاق خيال ، يرزق النوم في عينيه ،
إذ هبَّ على خياشيمه شذاً القهوة المعطرة ، واستبان له شبح الفتاة
تقرب منه القدح . فاعتدل في قعدته ، وتأهب لارتشاف قهوته ،
وخالس الفتاة نظرة ترفع ، ثم أشار إليها بظهر يده أن تنصرف لشأنها ،
دون أن ينبس ببنت شفة .

وفرع « محمد افندى » من اشتفاف القدح ، فإذا « الشيخ
عزبان » يلوح متزاحفاً في مشيته ، جمّ الحياء ، بادى التذلل .
وألقى عليه تحية بالغة الإجلال ، ثم اتخذ مجلسه عن كئيب منه ،

وشرع يتلو بعض الآى فى صوت خافت ، معداً أوتار لهاته لتجويد وترنيم ...

واذّ هما على هذه الحال ، قدمت الفتاة تسترجع القدح ، وما لبثت أن عادت أدراجها . فرفع الشيخ بصره فى محاذرة واستحياء ، ونظر إلى « محمد افندى » قائلاً وهو يفرّك يديه :

لعل سيدنا البك راض ...

فصوّب الرجل عينه إلى الشيخ ، وقال مغضّب الجبين :

عن أى شىء ؟

ففرّج الشيخ ما بين شفّتيه ، وبعثر نظراته كيمنة ويسرة ، وقال مطأطئ الرأس :

عن البُنيّة ... خادمك ...

فأشاح الرجل بوجهه فى إهمال ، وقال :

لا بأس بها ...

ثم ما عتم أن انطلق يتضاحك فى تصنع ، وهو يقول :

ما لبنيّتك هذه ضيّلة ، لا تكاد تبين ، كأنها حرباءة ؟ ...

فاستجاب له الشيخ يضحك كما ضحك ، واندفع يهزّ عطفه ويفرك يديه قائلاً :

أطال الله عمرك ، ولا حرّمنا عطفك ورضاك ...

وأعضلت علة الطاهي الهرم ، فلم تدع له طاقة باستئناف العمل ، فواصلت الفتاة الاضطلاع بخدمة الدار ، تباكرها في ريق الصبح ، وتظل فيها إلى غيوب الشمس ، وأحس « محمد افندی » في داره إحساساً جديداً لم يسبق له به عهد . ذلك أنه الأمر المطاع ، والداعي المحجب . إذ خلا المطهى من زجرة ذبلك الطاهي الحرف ، وحلت محلها تلك الطاعة المطلقة ، والانقياد التام ...

وكان يقضى الرجل شطرَ يومه الأول على عرشه في المطهى بين المواعد والقدور ، يتملى مرأى المطاعم ، ويتشمم ما يتصوّع من شذاها ، ويستمتع من مذاقها بما يريد ...

فإذا انتصف النهار ، تجلت أمامه الصينية الرحبية ، وقد احتشدت فيها صحاف المشهيات والخضر الحريفة من نحو البصل والكراث وما إليه . وفي بهرة الصينية يستقر الطبق العتيد تتشامخ فيه أركان الأراذب على حشايا الرزّ المسمون .

فينبرى « محمد افندی » للطعام وقد تطلق محياه ، وتجمع لقرائسه يناقشها الحساب ، ويستصفى ما تحتوى من زبدة ولباب .

وربما انحرف بصره غير عامد ، فصادفه شيخ الفتاة ، ماثلة

ترتقب إشارته ، لتسارع إلى التلبية ، فيهمهم والطعام يعتريك بين شذقيه :
 طهوؤك يبشر بمستقبل حسن !
 فتبتسم الفتاة خجولا ، وتجييه خفرة الصوت :
 أدام الله علينا عزك .

وما إن يفتّر ثغر الرجل عن مطلب حتى تكون الفتاة قد أجابته
 إليه ، فهذا كوب الماء تنحني به عن كذب منه ، وذلك طبق نظيف
 تقر به إليه .

وما يكاد يفرغ من طعامه ، أو بالحرى : ما يكاد يفرغ الطعام
 بين يديه ، حتى يرى الفتاة قد مثلت أمامه بالطست والإبريق ، وعلى
 كتفها الفوطة حاضرة . وهى فيما بين ذلك كله رائحة غادية ، تدأب فى
 إسعافه بما يطلب ، وفى التفتن إلى ما يهجمس فى نفسه ...

أما هو فلا يكون منه إلا العجيج بأوامر لا تنتهى ، والصياح
 بطلبات ليست بذات بال . وإنما هى رغبة التأمر والاستمتاع بالسيطرة ،
 فلا يجد من الفتاة على أية حال إلا الطوع والإذعان .

وبعد الغداء يقبل « الشيخ عزبان » فيأمر « محمد افندى » بجمع
 بقايا المائدة ليحملها الشيخ فى منديله الأحمر الفضفاض . وقبل مبارحته
 الدار ، يسأل « محمد افندى » فى شأن فتاته ، ومبلغ رضاه عنها ،
 فيجيب الرجل :

لها مستقبل إن تابرت وصابرت ...

— تعليقات سعادتك خير مرشد لها فى الطريق ...

— إني أعلمها قدرَ ما تفهم ...
 — ثق بأن ثوابك عند الله عظيم ... إن الله لا يضيع أجر
 المحسنين ... هي بنت يتيمة ، ونحن ليس لنا في الدنيا غير عطفك ...

١٠

وفي بُكرة يوم هبط الطاهي الهرم يتحامل على عكازته ، وقد نهكته
 العلة ، وتحيقه الهزال . فتداني من « محمد افندي » يحييه ، فبوغت
 بلقائه ، ولم يستطع أن يكظم استيائه ، فاستقبله بوجه كالح . ولكنه
 لم يجد مندوحة عن رد التحية ، والسؤال عن الصحة .

واحتل الطاهي عرشه القديم بين المواقد والقذور ، وانتهت مهمة
 فتاة الشيخ ، فلم يعد لها مجال .

وعادت الحياة في الدار كما كانت : زجرة الطاهي تجلجل
 ولا تهدأ ، والمطهى حمى لا يستطيع أحد أن يقترب منه إلا في محاذرة
 واحتراس .

فكان « محمد افندي » يفرع إلى مستشرف الدار يئته همه وضيقه .
 إذا استبدت به الرغبة إلى مطالعة المطهى تسرب إليه على أطراف
 أصابعه ، ونظر من خصاص الباب يلتمس الطمأنينة على ما يجري في
 عالم المواقد والقذور من شئون .

وكرت الأيام تنعى إلى « محمد افندى » تضاول نفوذه ، وتزابل هيبته ، وتناقص راحته ، إذ عاوده ما كاد ينساه من خدمته لنفسه ، وقيامه بحاجاته ... إذا عطش فلا سبيل إلى ريه إلا إن نهض يملأ الكوب ، وإذا أكل حتى تضلع وأثقل لم يجد مندوحة من النهوض بعثه إلى مرافق الدار يغسل يده . فأما شهوة التأمّر ونزعة السيطرة فقد احتبست في قمقمها لا تجد السبيل إلى الانفلات .

ولم تكد تمضى أيام على قدوم الطاهى ، حتى مال « الشيخ عزبان » على « محمد افندى » يشكو إليه ما دهاه من ألم في الظهر ، ووجع في المفاصل ، مما اضطره أن يثوكاً على كتف فتاته في تنقله ... ومن ثم كان « الشيخ عزبان » يؤم الدار مصطحباً تلك الفتاة ، فإذا قدم إبان الطعام ، حاولت الفتاة أن تخدم سيد الدار على مائدته كسابق خدمتها له ، فيحس « محمد افندى » براحة فقدما منذ عاود الطاهى عمله .

وكان ذلك الطاهى إذا لمح الفتاة في هذه الفترة القصيرة ، تعكر عليه بخطواتها صفو استقلاله ونفوذه ، اعتلجت في نفسه زجرة حبيسة ، وحدجها بنظرات حدّاد ، واستعاذ بالله من شر تلك المنافسة الشعواء . وشاعت في أرجاء الدار سارية من الخصومة المكبوتة ، والاستنكار المكنون . وكلما طلع يوم جديد ، شعر « محمد افندى » باشتعال رغبته في الخلاص من هذا المأزق ، وتصفية ذلك الجو ، والرجوع إلى حياة طمأنينة وراحة وسلام .

و ذات يوم لم يكد الشيخ ينصرف في صحبة فتاته بعد الغداء ، حتى
 زحف الطاهي الهرمُ إلى سيده يرجفُ غيظاً ، وإذا هو يُنهي إلى
 « محمد افندى » أن فتاة الشيخ قد أعملت في المطهى يد العبث ، وأنها
 جرؤت على أن تبتد بعض الأواني ، وتسلب بعض الأطعمة .

واندفع الطاهي في نكيره وسخطه ، يعلن أنه يحرم على الفتاة مقاربة
 المطهى بعد اليوم ، وإلا قصم ظهرها ، وقذف بها فاقدة الأنفاس .

وكانت هذه القذيفة أذناً بانفجار البركان ، فقد نفرت أوداج
 « محمد افندى » وفار الدم في رأسه ، وصاح من فوره متهدج الصوت :

صل على النبي .

— اللهم صل عليه .

ومرت لحظة ، فأحس « محمد افندى » ريقه يغيض ، وأوصاله

ترعد . فردد قوله :

قلت لك صل على النبي .

— ألف صلاة عليه .

— أنت منذ اليوم مطرود يا حضرة ...

ففوجئ الطاهي بتلك الكلمة ، وعاجلته البهتة ، وأحدّ بصره في

الرجل ، كأنما يستوضح من ملاحظه كنهه ما سمعت أذناه . وهمهم :
مطرود ؟ ... مطرود ؟ كيف ؟

— مطرود والسلام !

وتمالك الطاهي ، واستعاد ثقته بنفسه ، ورمى الرجل بنظرة نكراء ،
وصاح في لهجة رعناء :

مطرود أو غير مطرود ... هذه البنت الحسيسة وجدّها المحتال لن
تطأ أقدامهما عتبة الدار ، بعد الآن ...

استمع « محمد افندي » للطاهي ، وهو يرسل هذا القول ، وجعل
يعمن الفكر فيه ، فلم يخرج إلا بمعنى واحد ، هو أن سيد الدار رجلٌ
غيره ، وأن الزمام مُفلتٌ من يده ، وأن أمره بطرد ذلك الطاهي الأحمق
أمر مشكوك في تنفيذه ، وإذن فالطاهي مستأنف عمله كدأبه ،
ولن يظهر في الدار ظل لذلك الشيخ وفتاته ...

وهمَّ « محمد افندي » أن يواجه سطوة الطاهي بما يقضى
عليها ، فحاول أن ينهض مستجمعاً متشجعاً ، يستعين جوارحه ،
ولكن سرعان ما خذلته ركبتاه المهترتان ، فتهاوى على مقعده العتيد
يهمهم في تضعضع واندهار ...

وما عثم أن رأى شبح « الشيخ عزبان » مقبلاً عليه ، ولم يكن
قد غادر الدار كما توهم الطاهي ، وإنما ارتفعت الستارة عن هذه
المأساة ، وهو في مُنصرّفه ، فرجع متزويّاً يتسمع ... ثم أقبل مبهور
الأنفاس ، يتصنع الإعياء ، وألقى بجسمه عن كُتب من « محمد

افندى» وصاح تخنقه العبرات :

لا أغلق الله لك بيتاً ... لا تقطع عيش هذا الطاهى المسكين ...
إنه رب أسرة ... أما أنا والبنت فكلانا فداء لراحتك ... خيرك
يعمنا دخلنا الدار أو لم ندخل ...

وشعر سيد الدار بقواه تتجدد ، وبغزمه يتشدد ، فاستطاع أن
يقول فى شبه صحيحة :

لا ... لا ... إنه مطرود بلا رجعة ! .

فما زال به الشيخ متوسلاً يقول :

العفو من شيم الكرام أين يذهب الرجل إن تخليت عنه ؟
ليس فى غنية عنك ، وما فى مقدوره إنكار معروفك ... لا ينكر
المعروف إلا كافرٌ جحود ... لقد كان قبل خدمته لك بائس
الحال ، فأطعمته وكسوته ، وبدلته بالبؤس نعى ... إنه مدين
لك بالحياة ... إنه ...

فضاق الطاهى بذلك ذرعا ، وقاطع الشيخ ، وهو يرميه بشواظ

عينيه :

حسبك يا شيخ حسبك ... ما هذا الهراف ؟

فاستدار نحوه « الشيخ عزبان » قائلاً :

أتنكر أن سيدنا البك جعلك إنساناً بحق ؟

— أنا إنسان منذ خلقنى الله ...

— إنسان أو غير إنسان ... عليك أن تقترب من سيدك ، وأن

تستغفره مما فرط منك ... تقدم فقبل يده ورجله ...

— أقبل رجله ؟ ما هذا ؟

فاشرأب « الشيخ عزبان » متتمراً ، وصاح ثائراً :

إنه ولي نعمتك ... طأطى رأسك ، واركع أمامه واستغفر ...

— الركوع لله وحده ...

فصلب الشيخ قامته ، ووقف أمام الطاهي وجهاً لوجه ، وقال :

اتق الله يا رجل ، واعرف لسيدك واجبه ...

— من الذى يجب أن يتقى الله ؟ أنا أو أنت ؟

— أنا رجل لا هم لي إلا تقوى الله ، وعرفان جميله ، والإقرار

بفضل ذوى الفضل ...

— بل إنك لا هم لك إلا الأحاديث الفارغة التى تلمس بها

التسكع فى بيوت الناس ...

— أمتسكع أنا أيها المخبول ؟

— بل إنك شيخ فاسد مملوء القلب من مكر وخداع ...

فالتفت « الشيخ عزبان » إلى « محمد افندى » وبدأت على وجهه

المسكنة والاستغاثة ، وقال فى لهجة المتباكى :

أنا فاسد ماكر خداع ؟ ... لا بأس ... لا بأس ... إني رجل

تجمعت فى كل خصال سوء ... لا بأس !

وسما بطرف منديله إلى عينيه يمسخهما ، وواصل حديثه مخاطباً

« محمد افندى » فى صوت متخاذل :

إلى مسامحه لوجه الله ... وأضرع إليك أن تعفو عنه ... إنه
رجل مسكين ذاهب العقل ، ليس عليه فيما يقول حرج ...
واقترب من « محمد أفندي » وأخذ بحاشية معطفه ، وقال :
أستحلفك بالله أن تعفو عنه ...

فصاح الطاهي محتدًا مستنكرًا لما يسمع :
وإن لم يعف عني فماذا يكون ؟ .
فانتفض « الشيخ عزبان » وأقبل على الطاهي يسدّد إليه نظرة
حامية ، وصاح :

يكون أن يخرب بيتك ، وتصيح فيه كالكلب الجائع ...
فامتدت يد الطاهي إلى مُخَنَّق الشيخ ، وأخذ بتلابيبه ، وهو
يقول :

الكلب الجائع أنت يا وقح ...
وسرعان ما اختلط الصياح ، وتشابكت الأيدي ، وتقارعت اللكمات ،
و « محمد أفندي » لا يزيد على أن يرقب المعركة محمق العينين في
ذهول ووجيف ... يريد الكلام فترتش شفتاه ، ولا ينطلق له صوت .
ويحاول الحركة فتختلج أوصاله ، ولا يستطيع أن يتقدم خطوة ...
يا لله من هذه المعركة العصيبة التي يخوضها « محمد أفندي »
الآن !

إنها موقعة فاصلة يتقرر بها مصير سلطانه في الدار ... هل ينتصر ،
أو تكتب له الهزيمة ؟ أيكون هو السيد المطاع ؟ أم تكون لهذا الطاهي

المستبد سلطة الأمر والنهي ؟

وتدفق حشد من أهل القرية يستجيون للصياح ، فاقنحموا الدار ، وما لبثوا أن فرقوا بين المتلاحمين ، وأقبل رهط منهم على « محمد افندى » يحيه في تجلة وإكبار ، ويسأله جليّة الخبر . وكان الرجل يتفصّد جبينه عرقا ، وهو جامد في مكانه ، كأما شدّ إليه بأمراس ... واستطاع بعد لأى أن يملك زمام وعيه ، وألقى نفسه يقول في صوت أبَحّ :

صلوا على النبي .

فارتجّت أرجاء المكان استجابة له ، وأشرعت إليه الأعين ، واحتبست الأصوات استشرافاً لما يقول .

وشعر « محمد افندى » بالعزة والإمرة ، وألقى نفسه في مقام السيادة بين الأتباع ، فقال :

هذا الطاهي مطرود منذ اليوم ...

وأراد أن يُردف هذه الجملة بأخرى ، فلم تسعفه القريحة بجديد . واضطّر أن يختم خطبته بقوله :

انتهى الأمر !

١٢

وأُظِّلَ الدار عهدٌ جديدٌ ... عهد استقرار وطمأنينة وسلام ...
المطهى مباح لرب الدار ، يقضى فيه من وقته ما اشتهى ، وأرجاء
الدار طوع صوته يرجئها بما شاء من صيحات الهيمنة والتأمر . وحفيدة
الشيخ تغدو وتروح مذعنة تلبى مطالبه في غير وَّناء . والصينية تزخر
بشئى ما تهفو إليه نفسه من مشهيات وخُضَّر ، يتوسطها ذلك الطبق
العتيد الذى تتشامخ فيه أركان الأرناب على حشايا الرزّ المسمون ...
و « الشيخ عزبان » يختلف إلى الدار يقرأ ما تيسر من آى الذكر الحكيم ،
ويطيل جلسته إلى « محمد افندى » يزف إليه المكرَّر من مديح الملق
والزُّلْفى .

وكثيراً ما يدعوه « محمد افندى » إلى ملاعبته بالنرد أو الورق ،
فلا تنتهى الملاعبة إلا بهزيمة الشيخ على الدوام ، وصياح رب الدار
بالتهمك والسخرية ...

فإذا مال ميزان النهار ، تهيأ الشيخ لمغادرة الدار مصطحباً فئاته ،
وقد تأبط صُرة عامرة يحاول أن يخفيها تحت عباءته ...

ويوما ضاقت معدة « محمد افندى » بأمرها ، فأعلنت العصيان ،
وما هى إلا أن استوطن الرجل فراشه يحاول علاج الحال ، وعُنى به

« الشيخ عزبان » وفتاته ، فلم يأكلوا جهداً في تمريضه وتدبير شأنه وإسعافه بالأشربة المدفئة . ولازمه الشيخ يؤنسه بالنوادر والطرف ، وما زال كذلك حتى انسدلت أستار الظلام ، فهمم الشيخ بالانصراف ، ولكنه كان يتباطأ ويتلكأ ، وأخيراً أقبل على « محمد افندى » يقول :
 ليس بهين علىّ أن أتركك ... سأبيت الليلة تحت قدميك ، ساهراً عليك ... أما البنت فإنها تظل في خدمتك ، رهن إشارتك ...
 سمع « محمد افندى » هذه الرغبة ، فأكبر ذلك الصنيع من شيخ هريم يبذل راحته فيما يراه واجبا عليه ...
 وانقضت الليلة في سلام

وتوالت الأيام تسجل لزوم الشيخ وفتاته للدار لا يرحانها ، وهما دائبان في خدمة « محمد افندى » متأنقان في تأدية مراسم الولاء له ، والاعتزاز به ... فازداد رب الدار استشعاراً لعظمته ، وثقة بنفسه ، فكان لا يهدأ من صياح وتأمّر ، ولا يشك في أنه مُلاق سماعاً وطاعة .

وعلى مرّ الأيام استطاع الشيخ وفتاته أن يظفرا من رب الدار بموфор التقدير ، فهو يطمئن إليهما في خاصة شأنه ، ويعول عليهما

في الجليل والدقيق من أمره ... وكان ذلك سبيلا إلى أن يحتل الشيخ
وفتاته مخزنَ المئونة ، فيتخذاه محلها المختار ...

وبدت على الفتاة مخايل النعمة ورغادة العيش ، فاعتدل قواؤها ،
وتورد وجهها ، وترنحت أعطافها من امتلاء ... فكان « محمد افندى »
يسرق النظر إليها ، باذلا جهده في التخفي والمساترة ، ولكن الشيخ
الطيب لم يكن يعز عليه أن يتصيد تلك النظرات المخالسة ، وأن يكتبته
مالها من غور . فكان يخلو إلى حفيده يُسرّ إليها الحديث ،
وكأنما هو يرسم معها خططا ذوات بال ...

ورُئيت الفتاة معنيّة بهندامها ، حفيّة بزيتها ، فإذا قدمت
بالقهوة إلى « محمد افندى » قاربت من خطوها ، وغضت من بصرها ،
وفزعت إلى خمارها تسبله على جانب وجهها ، ولكن الخمار لا يلبث
أن يسقط ، فيبدو شعرها قد ترامت ضفائره ، وعلى جبينها قد انعقد
منديل مَوْشِيّ الحواشي ، مختلف الألوان . فأما وجنتاها فإنهما
تنصرجان كأنهما قد أدركتهما صبغة الحجل والحياء ، وأما عيناها فتظهران
كحيلتين ، لا تدرى أمكحولتان هما يا ئمد ؟ أم هذه صبغةُ الله ؟ !
وإن الفتاة لتسارع إلى خمارها تلتقطه ، وقد اختلط في قسماها
الاضطراب بالابتسام . ويتضحك « محمد افندى » وهو يقول :

يا لها من فتاة ساذجة !

وتوال الأيام تزيد من خلوات الشيخ بحفيده ، وبين يوم ويوم
تتجلى نتائج هذه الخلوات ...

وبينما كان « محمد افندى » ذات ليلة مضجعاً على مُتْكته ،
بعد عشائه ، وقد رَتَق في عينيه الوَسَن ، طرقت الفتاة حجرتَه تحمل
صينية القلل ، وكانت كشأُها الحديد بادية الزينة ، متضوّعة العطر .
فجازت برب الدار صامطة خافضة البصر ، فثابت إليه يقظته ، وجعل
يرقبها وثّاب النظرات ...

ولما أقرت الفتاة الصينية في مكانها من النافذة ، وهمت أن تعود ،
عاجلها « محمد افندى » بقوله :

اسقيني يا صبية ...

فأحضرت له القلة ، يفوح منها العبق ، فأخذ يترشّف منها ،
وعيناه تراوحتان الصبية وتغاديانها ، وبخّور القلة يمازج عطر الفتاة
ويزدحم على خياشيمه ... وما كاد يناوئها القلة حتى همهمت في صوت حنون :
هنيئاً ...

وقبل أن تغادر الحجرة ، قالت له كاسرةً من طرفها :

نوم العافية يا سيدى !

فشكر لها « محمد افندى » رقة عاطفتها ، ونخايل الغبطة تتجلى
على أساريه .

وتقلب الرجل على متكئه ، وهو يجاهد أنفاسه ، ثم انسرح في آفاق شتى من الأخيلة ...

ما أعظم الفرق بين صبايا الريف ونساء المدائن ! ... صبيّة الريف مؤدبة مهذبة ، ساذجة طيّعة ، طيبة القلب نقية ... أما الأخرى ، والعياذ بالله ، فقد عرفها مجّمعاً للشُرور والآثام : خبث نفس ، وطول لسان ، وجنون خيلاء !

وفي الأمسية التالية كمن « محمد افندى » في متكئه ، يترقب صينية القلل ... وما إن أقبلت الفتاة تتخطر ، وعلى أعطافها يتهدل خمارها المصفوف ، حتى سارع الرجل إلى طلب شربة ماء . فلما نفع غلّته ألقي نفسه يقول للفتاة :

حقاً إنك بنت حلال ، وإني لراض عن خدمتك ...
فجثت الفتاة من فورها على يده تلتصمها في خشوع ، ثم طففت تمسح من عينيها أنداء من دموع ...
فنظر إليها دهشاً مهتاجاً يقول :
ماذا يبكيك يا صبيّة ؟

— أبكى من فرط ما ألقاه من عطفك يا سيدى ! ... لم أكن أعرف أن في الدنيا أحداً يحمل قلباً مثل قلبك الكبير ... إنك تأسير بمعروفك النفوس ...

— حسبك ... حسبك ...

— قسماً برأس جدّى إن ما أقوله هو الصدق الخالص

ما ذاق معروفك إنسان إلا فَنَى في خدمتك . . . أنا وجدّتي ننزلك
من قلبينا أكرم منزلة . . . نكبرك . . . نجلّك . . . نعزّك . . . نحبك . . .
نحبك الحب كله !

ثم عقد لسانها التلعثم والارتباك ، فحنت رأسها ، وأسبلت
خمارها . . .

وشاعت الابتسامة على محيّا الرجل ، واهتزت أوصاله ، وهمهم :
إني مصدقك . . . وإن حبك أنت وجدّك ليس بخاف
عنى . . .

فرفعت الفتاة رأسها شَرِقة بدمعها ، وهى تقول فى حرارة واهتياج :
أطال الله عمرك ، وزادك عافية وعزة ، بحق جاه النبي وآل
بيته . . . دعوة من القلب تفتح لها السماء !

وندّت من الفتاة تهدة خافقة راعشة ، ثم انحنت على « محمد
افندى » تلثم حاشية جلبابه ، وانفلتت تغادر الحجرة مهرولة ، كأنما لا
تقوى لحجلها على أن تطيل البقاء . . .

وفهض « محمد افندى » يذرعُ الحجرة بطيء الخطو ، ثقيل
الحركة . . . إنه لم يستطع أن يظل على متكئه . . . ما أحوجه إلى
أن ينفّس عن نفسه . . .

وعلا بصدّره منتفخاً ، وقد استنار وجهه . . .

لقد برح الخفاء . . .

لقد وقعت الفتاة فى شرك هواه . . .

كل حركة منها تم عن هذه الحقيقة الصادقة : صوتها الحنون ،
 نظراتها الجياشة ، دمعها المطواع ، حديثها الفوار ...
 وألقى « محمد افندى » نفسه يتزاحف إلى المرأة ... أليس الشبح
 المائل أمامه صورة رائعة من الرجولة الكاملة ؟ ... هيبة وجلال ،
 طلعة مشرقة ، عين نفاذة ...

وانتفش الرجل مزهواً يقتل شاربهِ الغليظ ...
 مسكينة هذه الفتاة !

ما أبينَ عذرها في التعلق بمثل هذه الشخصية الجبارة !
 وتابع سيره في الحجرة هيّئ الخطوات ، وقد جعلت أشتات
 الخواطر تتداعى في مخيلته ...
 أما أن الفتاة له عاشقة ، وبه مدلهة ، فذلك أمر فوق الشك
 والخلاف ! ...

ولكن ما شعوره هو نحوها ؟
 شعوره ؟ ...

أفى المعقول أن يفكر « محمد افندى » رئيس مخازن وزارة المالية
 الأسبق في أن يأذن لقلبه أن يخفق لمثل هذه الفتاة الريفية الدُّنيا ؟
 أو ينسى أنها عاشت وما زالت تعيش في كفالة جدها القارئ ،
 ذلك الذى يتقوّت من فتات المقابر ، وفُضالات الموائد ؟

وما شأن قلبه اليوم بالغرام والهيام ؟
 لقد فرغ قديماً من سلطان ذلك القلب وإذلاله !

إن الرجل اليوم سيد نفسه ... هيهات أن يدع لقلبه مجالا للتمرد
والتحكم والإملاء !

وما قيمة المرأة في نظره الآن ؟

لقد انبت ذلك العهد الذى كان فيه ينقاد لسحر النساء ، فأصبح
الساعة هو الساحر ، وهو المعزّ المذل !

ولكن ما لهذه الأفكار والخواطر تتداعى في رأسه حين يفكر
في تلك الفتاة الساذجة العطوف ؟

ليس في الأمر مطمع في أن يقابل حبها بحب ... إن خطبها
ليسير ... لا ريب أنها جديرة بلون من العطف والتقدير ، لقاء ما
تبذل من خدمة ، وما تكنّ من إخلاص ...

ووجد قدميه تسوقانه إلى صينية القلل ، فأخذ إحداها ينهل منها ،
وراح يستنشى بخورها ، وكأنه يستروح في هذا البسخور عطر الفتاة ...
وعاد إلى المرأة يطالع فيها محياه ، ويفتل أمامها شاربه ...

وبعد فترة من الزمن شوهده الحلاق يختلف إلى منزل « محمد
افندى » يُعنى برأسه وذقنه وأظفاره ، مستعينا في عمله بألوان العطور
والدهان ...

ولوحظ على ربّ الدار أنه حريص على أناقته ، يهبها طويلا من
وقته ... فإذا تنقل في الدار مشى في تخطر ، وإذا تكلم كان كأنه
يترنم ، وإذا تحدث إلى « الشيخ عزبان » خلط حديثه بالدعابات
والأفاكيه ...

أما صلته بالفتاة فكان يتغشاها غموض حائر ، وصمت قلق ...
ولم يكن بينهما من الحديث إلا تبادل كلمات مألوفة عليها صيغة
الركة والتلطف ...

وظلت الفتاة منطوية على نفسها ، ولكنها كانت فى الفينة بعد
الفينة تُخالس رب الدار خوافظ النظرات ، ونواغم التهنيدات ...
وما كانت تغفل ساعة عن تعهد نفسها بالتزين والتعطر !

١٥

وتواردت أيام على هذا النحو ، ثم بدا على « الشيخ عزبان »
طارئ من وجوم وسهوم ، فكان إذا جلس إلى « محمد افندى »
بدا كأنما يتهيأ للإفشاء بأمر يكشف عما يعتلج فى نفسه من قلق ...
ثم لا يلبث أن يتظاهر بالنكوص وتلافى الحديث ، والعدول بالكلام
إلى مجرى آخر ، فيسأله « محمد افندى » :
ماذا يريد أن يقول ؟

فيعذر الشيخ بأعذار مختلفة ، ويعتل بأشتات من العلل ، وتأخذ
علام السهوم والوجوم مكانها من قسما وجهه ، كما كانت من قبل ...
وأن للشيخ أن يضع حداً لهذا التمهل والانتظار ... فقد ضاقت
نفسه بذلك الليل الغامض البهيم الذى أبطأ انبلاج فجره ، أو لعل

الأحرى بالقول أن الشيخ قد أحسّ أن الموضوع قد نضج ، وأن
الثمرة قد أينعت ، وأنه قد حان القِطاف !

وأقبل صبحَ يومٍ يجرجر جسمه المهزول ، قاصداً مُستشرف
الدار ليلتقي « محمد افندى » وهو مضطجع على أريكته ، يسبح في
ملكوت الله ...

واتخذ مجلسه غير بعيد منه ، وجعل يجمع بعضه إلى بعض ،
ويلملم ما انتشر من أطراف عباة ...
ثم طأطأ رأسه لحظة ، وانهاه على يديه يفركهما في اضطراب ،
فقال له « محمد افندى » :

خيراً يا شيخ عزبان ...

فكث الرجل خافض الرأس ، وهمهم في صوت متخاذل :
لقد حضرت في أمر أرجو أن تعينني على تحقيقه ...

— لك ما تريد يا شيخ عزبان ...

— لقد لقينا من برك وكرمك فيضاً لا ننساه ما حيننا ... وإلى

أطمع أن تتم جميلك بفضل جديد ...

— طلبك مجاب .

— تسمح لي أنا وحفيدي أن نبرح الدار ، وأن تعفينا من واجب

خدمتك ...

فألقى عليه « محمد افندى » نظرة فيها الدهش والتعجب . وهمهم :

تركان خدمتي ؟ ... ماذا جرى ؟

فاشرب الشيوخ ، ورفع يديه إلى السماء ، وهو يقول صائحاً :
قسماً بالله العلي العظيم إني ما رغبت إليك في هذا الأمر إلا
بالرغم مني . . . ولو خيّرت ما اخترت إلا أن أظل بقية أيامي تحت
قدميك ، حتى أفضى نَحْبِي ...

فاختلجت عين ربّ الدار وهو يقول :
لم أفهم شيئاً ... لماذا تتركاني إذن ؟
فصلب الرجل قامته جهد ما يستطيع ، وقال وهو يُزيغ بصره
عن جليسه :

أنت سيد العارفين ، وفي فطنتك غنيّة عن الشرح والإيضاح ...
اللهم اشملنا بالستر والسلامة !

وانحنى « محمد افندي » على شاربه يفتله ، محاولاً أن يتفطن
للأمر ، حتى يكون سيد العارفين بحق ، وحتى يكون الفطن الذي
لا يفتقر إلى شرح وإيضاح ...
ولكن الشيخ أسعفه بقوله :

ليس في المستطاع أن أدع البُنيّة في الدار بعد الآن ... حسبها
ما انتهت بها الحال إليه ...

وأراد « محمد افندي » أن يتكلم ، ولكن خائنه بديهته ، فجفّ
ريقه ، وجمدت الكلمات على لسانه ، وسمع الشيخ يتابع قوله :
سأزوّج البنت رجلاً اخترته لها ... رجلاً من بيتنا ،
ملائماً لنا ...

وتهدج صوت الشيخ ، وهو يقول مهتاجاً :
 لأرغمها على الزواج ، رضيت أو أبت ... أما ما تسميه
 قلبها فيأني سأحقه سحقاً ... عجيب أن يجمع الخيال بتلك البنت
 الغريبة إلى ذلك الأفق البعيد !
 ثم صوب نظره ، كأنه يستمد من السماء عوناً في مأزقه الحرج ...
 وما لبث أن أقبل على رب الدار هابطاً على يده يُنذرها بدموعه ،
 وهو يقول :

عفوك إن كنت في ثورة نفسي قد أسأت إليك من حيث
 لا أريد ... اشملي برضاك ، ودعني أفرّ بالبنت إلى مصيرنا المقدور ...
 وما هي إلا أن انصرف الشيخ عجلان الخطأ ! .

١٦

يا لها من ساعة دهياء ، قضائها « محمد افندى » يتقلب على
 أريكته لا يستطيع أبراحا ، ولا يجد من ضيقته فرجاً ...
 انفرد « محمد افندى » في الدار يومه الأطول يجترّ همه ، ويعاني وحشته ...
 ولما عضّه الطوى دبر له طعاماً كما اتفق ...
 وألحت عليه شهوة القهوة ، فلم يستطع بعد لأي إلا أن يُعدّ
 قدحاً ليس بالسائع ...

ولم يلبث « محمد افندى » أن شعر بأن وسائل راحته تجشمه
 ضروباً من الكلفة والتعب ، سواء في مشربه ونظافته وتنقله ... فإن
 سمّت نفسه إلى شيء شقّ عليه أدأؤه ، وحسّب له أعسر حساب !
 فلما جنّ الليل تكاثفت عليه الوحشة ، واشتد به الضيق ،
 فترك مُستشرف الدار ، منتحياً حجرة النوم ، وحاز بالمرآة ، فثل
 تجاهها لحظة ، فارتاع مما وضع له من سحنة غبراء كاد ينكرها ...
 وألقى شاربه الغليظ قد تدلّ دلّ وتهلّهل ... فأدبر عن المرأة يتسخط ،
 وبهالك على المتكأ تتقاذفه الخطرات ...
 حق للجدّ أن يفعل ما فعل ...

إنه يريد أن يقف تلك العاطفة الجموح التي استبدت بالفتاة ...
 إن الشيخ لأحزم عقلاً ، وأنور بصيرة ، من أن يتطلع إلى
 تدبير غير هذا التدبير ...

لقد فكر في تزويج حفيدته شخصاً آخر ، كبشاً للجراح تلك
 العاطفة ، وحسباً لذلك الموضوع

ما أكرم مُخلّق الشيخ ، وما أنبل نفسه !
 إذن ستزفّ الفتاة إلى رجل لا يهفو قلبها إليه ...
 وتخاليل أمامه طيف الفتاة ناضرة إليه في وجد واسترحام ، يمازجها
 حياءً وطهر ...

وصعد الرجل تنهدة عميقة لم يطق لها كبتاً ...
 وتلاحقت لناظره مشاهد من حياة الفتاة في داره ، فرآها في

كِنْ الأَرَانِبَ رَشِيقَةً كَالطَّبِي ، فرحة مَرَحَةٍ ... ورآها وهى مرهفة
السمع ، لا يكاد يلفظ من قول إلا سارعت إلى تليته ...
وهل ينسى مَقْدَمَهَا فى الأَمَاسَى بِصِنِيَةِ القَلَلِ يَضُوعٌ بِخُورِهَا ،
فِينَعَشُ نَفْسُهُ ؟

وهل ينسى تلك الابتسامة الوديعَة الحَيِّيةَ التى تودعه بها كل ليلة
حين تحييه تحية الانصراف ، قائلة :
نوم العافية يا سيدى !

وزفر « محمد افندى » زفرات متلظية ، ثم استرخى على متكئه ،
وترك للأفكار عنانه تطوح به ، حتى أسلمه الإعياء إلى المنام ...

١٧

وَبُكْرَةَ قَدَمِ « الشيخ عزبان » الدار يقفوه ذلك الطاهى الحرم ،
وقد تبدت على أساريه ذلة ومسكنة ، فأقبل كلاهما على « محمد افندى »
يحييانه تحية الإصباح .

ثم أخذ الشيخ بيد الطاهى ، مَدِيناً إِيَّاهُ مِنْ رَبِّ الدَارِ ، وهو يقول :
قرب وقبل يد مولاك ، فإنه سمح النفس غفور ...
ولم يكن « محمد افندى » قد أعدَّ لهذه البغته عدة من تدبير ،
وأحس بالطاهى يركع بين يديه ، وهو يهمهم بكلمات الاعتذار والاستغفار .

وسرعان ما أفلتت من فم سيد الدار كلمة الصفح الجميل ...
وما كاد ينطق بها ، حتى ثاب إليه وعيه ، فراجع نفسه وكأنه يلتمس
المنفذ إلى استدراك ما أفلت ، ولكن الشيخ أخذ عليه الطريق ،
مخاطباً الطاهي بقوله :

ألم أقل لك إن سيدنا البك رجل لا يحمل في قلبه حقداً ولا
ضغينة ، وإنه أسرع إلى العفو وأقرب إلى الرحمة ؟ قم فاضطلع بعملك ،
وأقم الدليل على أنك أهل لهذا الرضا الكريم ...

والنبي « محمد افندى » نفسه يصدر أوامره إلى الطاهي ، فيتلقاها
الرجل في أدب وإذعان ، بيد أن هذا الإذعان وذلك الأدب لم يدوما
طويلاً ، فقد عاودت الرجل صلابة نفسه ، وحدّة طبعه ، وشدة مراسه ،
حتى إن رب الدار آلى على نفسه ألا يقرب المطهى ، لينجو من سلاطة
ذلك الطاهي الحرون ...

وطغت على الدار تلك الروح السابقة ، روح التزمّت والفوضى ،
حيث لا راحة مكفولة ، ولا أنس شائع ، فكان « محمد افندى »
يقطع نهاره الممدود مملولاً في مستشرف الدار ...

ومما جاء ضيقاً على إبالة أن « الشيخ عزبان » قطع عن الدار
زوراته ، وأتاب عنه في تلاوة القرآن غلاماً زرى الهيئة ، كأنما هو
صعلوك شريد ... فكان يرفع عقيرته بالقراءة ، ويهز قامته هزة
عنيفة ، كأنه دمية شاهة ذات لولب ، لا تهدأ لها حركة ، فيضيق
به رب الدار ، وتثور في نفسه مشاعر الاشمتزاز ...

وإذا أقبل الطعام مدّ الغلام إليه عينيه الضاريتين يرقب يد «محمد افندى» وهى تعالج اللقمة حتى تُسلمها إلى فمه ، وكأن هذا الغلام يعدّ على رب الدار ما يزدرد من لُقمات ...

١٨

وياويلَ «محمد افندى» من الليل ...
 إنه يهبط عليه حاملا إليه ضروب الأرق والوحشة والاكتئاب ...
 وعبثاً كان الرجل يحاول التزلف إلى النوم بمختلف الوسائل ،
 وطالما طرقة طيف الفتاة فى غدوّ ورواح ، وعلى محياها حزن وتحسّر ،
 وكأنما هى تستغيث به ، طالبة منه العون !
 إنها تتضرع إليه أن ينجّيها من ذلك الزوج الذى فرضه جدّها
 عليها فرضاً ، وأرادها عليه حتماً ...
 ولكن أنّى السبيل إلى النجاة ؟
 وكيف له أن يُبلغها ما تصبو إليه ؟
 نحن فى الريف ، لا خيرةَ للفتاة فى من يكون زوجها ...
 لو تمنعت وتأتبت ، لعدّ ذلك عليها عاراً أى عار ...
 لا مصير لها إلا هذا المصير ، ولا سبيل إلى دفع ذلك المقدور ...
 ستزوج لا محالة ، وإن لم تحمل لزوجها أثارة من حب ...

لقد وهبت قلبها رجلاً آخر ، رجلاً تراه مصروفاً عنها ، غير
معنى بأمرها ...

ما أقسى قلبه ، وما أغلظ كبده !

وفزعت يد « محمد افندى » إلى مروحته عن كذب ، فتناولها
ثائر الأعصاب ، يروح بها وجهه المتضرم ، ويلتمس منها مدداً
لأنفاسه المختنقة ، ولكنه لم يملك أن يصرف عن خاطره التفكير في
شأن هذه الفتاة ...

لن تحب الفتاة زوجها ... وكيف يستطيع ذلك القروى الأغلف
إسعادها ، بعد أن عاشت في كنف « محمد افندى » فترة ، فاقبست
منه شمائل الحضرة ، وألفت منه رقة المعاملة وأدب المعاشرة ولين الحديث ؟
مظلومة هذه الفتاة التى أقصيت عن هذه الحياة الحضرية ،
وقدّفت بها في جحيم لا تطاق !

وصابراً « محمد افندى » هذه العيشة التى يعيشها أسبوعاً وبعض
أسبوع ...

أحكم عليه القضاء بأن يظل بين هذا الغلام الفجّ ، وذلك
الطاهى العطب . يزعجه الأول بصوته المنكر ، ونظراته المبهمة ،
ويملك عليه الآخر زمام مطهّاه ، ويغدو حاكماً بأمره فيه ؟ !

وفي ضحوة يوم شوهد رب الدار يتركها بعد خلوة مديدة بالحلاق ،
ذلك الزائر الذي كان قد انقطع عن الدار منذ فترة ...

خرج « محمد افندى » في حلة قشبية ، مفتول الشارب ، مُطرّى
الشعر ، تتخطر في يده عصا مفضضة ...

وقادته خطاه إلى كوخ « الشيخ عزبان » فألفاه على المصطبة متربع
الجلسة ، فما إن أخذته عين الشيخ حتى انقتل قائماً ، يجاهد في لم
شعثه ، وصلب عوده ، وما أسرع أن فاض لسانه بالترحيب المكرر :
أهلاً وسهلاً ... أشرقت الأنوار ...

وانهمك على المصطبة ينظفها ، ويسوى عليها الحصير ، ويمهّد مجلساً
للزائر الأعز ...

ثم انبرى يصفق صائحاً :

قهوة يا بنت لسيدنا البك ...

وما إن استقر المقام « بمحمد افندى » حتى استشعر العزة والرفعة ،
فجلس جلسة الإمارة ، وقال « للشيخ عزبان » :

كيف الحال ؟

— أى حال ؟ لقد كنت مُوشِكاً أن أموت !

— نموت ؟ كيف ؟ سلامتك !

— سلمك الله ... لولا لطف الله لكنت الآن معزياً في !

— لقد أحسست أنك مُتَعَب ...

— قلب المؤمن دليله يا سيدنا البك ...

— قلت أزوره لأطمئن ...

— أكرم الله مقامك ، ووفر طمأنينتك ...

وتلفت « محمد افندي » حوله ، يرقب الأكواخ والمسالك ،

ثم قال :

ما أحوج هذه القرية إلى جهاد موصول لإصلاحها وتنظيمها ...

من أجل هذا تركت « القاهرة » وآثرت المقام هنا ... إن مدّ الله

في عمرنا بذلنا ما في وسعنا للتعمير والإصلاح !

— كلنا ندرك فضلك ، ونشكر معروفك ...

وانقضى وقت يتبادل فيه الرجلان حديث القرية وما تتطلب من

أسباب النهوض

وأسفر بباب الدار مُحِيّاً لمّاح فوّاح بزيتته وعطره ... محيا الفتاة

تحمل صينية القهوة . فانتظمت « محمد افندي » اختلاجةً طال

به ، فلما دنت منه الفتاة خافضة البصر ، ابتدرته تحييه ، وتمد يدها ،

فترك لها يده تلتصمها ، وهمهم :

كيف أنت ؟ .

فأجابته في صوت متلعثم :

— ما دمتَ بخير فالحمد لله على كل حال ...
وما لبثتُ أن رجعتُ أدراجها إلى الدار ...
وأظل المصطبة صمت ثقيل ، وكان الحدّ ينكثُ الأرض بعود
يابس بين أنامله ...

وأراد « محمد افندى » أن يستنجد بمشروعات الإصلاح للقرية
لتكشف عن المصطبة حجب الصمت ، فلم تنجده بشيء ، فأخذ
يسعل ويتنحّح .

وأخيراً قال الشيخ حازم اللهجة ، وما زال يعبث بالعود :
غداً عَقَدَ زواج البنت !
فأخِذ « محمد افندى » بما سمع ، وجمجم في دهشة :
غداً ؟ ... غداً ؟ ...

— خير البر عاجله يا سيدنا البك ...
فقال « محمد افندى » في سهوم :
حقاً ، خير البر عاجله !
ثم تقلب في جلسته وقتناً ، وقال :
سمعت منك أن البنت غير راضية عن هذا الزواج ...
— ليس ذلك بمهم ... راضية أو غير راضية !
ثم سما الشيخ برأسه ، وسرّح بصره في الأفق ، ثم قال كأنما
يهمس :

أما من ناحية البنت فإن دمعها لم ترَقاً منذ نبتت فكرة الزواج ...

— حرام عليك !

— هذا هو المقسوم ...

وتكاثرت حركات « محمد افندى » ، فمرة يُمرّ يده على جبهته ،
وحيناً يهرش رأسه ، وتارة يهزّ قدمه ، وطوراً تنبعث من صدره زمزمة
وهريير ...

ويعالج أن ينيس بقول ، فلا يفتح له شيء ...
وطال الصمت الجيَّاش ، وكان الجد مهتماً يواصل العبث بالعود .
ووجد « محمد افندى » نفسه يعتدل في جلسته ، ويسدّد إلى
الشيخ نظره ، وقد انفكت عقدة لسانه ، فقال مندفعاً :

صل على النبي ...

فرفع الشيخ هامته ، متوقعاً أمراً جليلاً ، وقال :
اللهم صل عليه .

— وأيضاً صل على النبي .

— ألف صلاة وسلام عليك يا نبي !

— أنا خاطب إليك حفيدتك ...

وتراءى الشيخ في دهشة مصنوعة ، وهو يقول :

حفيدتى أنا ؟

— لقد سمعتَ ما أقول ... أنا خاطبُ إليك فتاتك ...

فاندفع الشيخ يدعك يديه إحداها بالأخرى ، وهمهم وقد خفي

رأسه على صدره :

وهل نحن نسمو إلى هذا المقام ؟
— لقد استخرت الله ، وعليه الأتكال ...

٢٠

لم تتوارد أيام ، حتى كانت الفتاة زوجاً « لمحمد افندى »
تعمّر داره ...

وانقضت الفترة الأولى كأنها حلم جميل ينعم به الرجل ليل نهار ...
لقد ألقي نفسه عروساً لفتاة غضة تُزْهِيه بشبابها النضر ، وتُنْعِشه
بما تُشيعه من بهجة ومِراح ، وتُعْزِه بما تبديه من ملاينة وملاطفة
وطُوع ، حتى إنها لم تكن تستكف أن تمتن بعض ما كانت تقوم
به قبلاً في خدمة الدار ...

فضاق « محمد افندى » ذرعاً بذلك التواضع ، وأصدر إليها أمره
أن تكفّ عن هذا الامتهان ... ؟

كيف تبيح زوجة رب الدار لنفسها أن تبتذل كرامتها وكرامته
بمزاولة الوضع من شئون الخدمة ؟

آن لها أن تترفع عن ذلك كله ، وأن تكون سيدة الدار المخدومة ،
وليس ذلك إلا بعض الجزاء لتلك التي أخلصت لرجلها ، ووهبتة
قلبها الفقى النقى !

لقد مست الحاجة إلى خادم يقوم على مرافق الدار ، فوقع الاختيار على الغلام ، تلك الدُّمِيَّة اللولبية المنكرة الصوت ... فحمل الغلام أعباء الخدمة المنزلية ، مُتَوَجِّة بهذه الأوامر والنواهي يصبها على رأسه رب الدار في الغدوات والروحات ..

وعرض « الشيخ عزبان » نفسه ليستأنف تلاوة القرآن في مستشرف الدار كل صباح ، فتصدى له « محمد افندى » يأبى عليه القيام بهذا الأمر ...

كيف يسوغ لرب الدار أن يدع صهره يقتعد الأرض ، ويمارس شأنًا جرى العرفُ باتخاذهُ موردَ كسب ؟ ...

« للشيخ عزبان » أن يقرأ ما شاء كما شاء ... فأما الراتب اليوميّ المعين ، فيجب أن يُوكلَ إلى قارئ آخر لقاء الأجر المعلوم ! وبعد جدال ونقاش استقر الرأي على أن يتولى الغلام تلاوة ما تيسر من القرآن في الضحوات ...

وهكذا اجتمع على كتف الغلام ما كان يقوم به الشيخ من تلاوة ، وما كانت تقوم به حفيده من خدمات ...

وألِفَ « محمد افندى » صوت الغلام ، فلم يعد يتبرم به ، وكثيراً ما كان يحلوه وهو على المائدة يصيب طعامه أن يستدعى الغلام ، فما إن يلبي دعوته ، حتى يقذف له لقيات وأشتاتا من لحم ، فيلقفها الغلام خفيف الحركة ، كأنه قط منهوم ، فيبعث الرجل ضحكاته رنانة من أعماق قلبه ، ثم لا يلبث أن يعاجله بفيض من الشتائم ومرذول

النعوت ، فيتلقاها الغلام داعياً لربّ الدار بطول العمر ...
وعرف الشيخ طريقه إلى مخزن المئونة ، فاحتله كسابق عهده ،
واتخذ منه مُصلاً ومرقده وملاذّ راحته الأمين ... وقد جاهر « محمد
افندى » بأنه إنما يؤثّر المقام في هذا المكان على تقاربِ أرحائه ، حتى
لا يكون في وجوده بالدار ما يضايق العروسين العزيزين ...

وبدت من الشيخ حمية في رعاية مصلحة الدار وشئونها ، وخص
بموفور عنايته ذلك الطاهى الحرون ... يكبح جماحه ، ويروضه على
طاعة ربّ الدار ، والإذعان لأوامره ... على أن ذلك لم يمنع أن يخلو
الشيخ إلى الطاهى خلوات أنيسة ، يتطارحان فيها الحديث في همس
وسرّار ، دون أن تنالهما الأسماع والعيون ...

طابت الحياة « لمحمد افندى » في ظل تلك الزوجية الجديدة ،
ولكنه شعر بوطأة النفقات ، فلم يُلقِ لذلك بالاً أول الأمر ، وكثيراً
ما حدث نفسه بأن الحياة إنفاق ، وأن للهناء ثمنها ، وأنه ما دام
كل درهم لا يذهب باطلاً فلا أسف عليه ...

وماذا كان يفعل « محمد افندى » حين ترغب إليه زوجته آنا بعد
آن في ملبّس من الحرير ، وحيناً بعد حين في حلية من الذهب ؟
أليس من حقها أن تظهر بالمظهر الملائم لزوج له مقام كريم ومكانة
اجتماعية ملحوظة ؟

أو ليس من واجبه هو أيضاً أن يرفعها إلى المستوى اللائق بمن تصبح
له زوجاً ؟

٢١

وتجلت سِيما الرفاهية على « الشيخ عزبان » ، فأزهرت عمامته ،
مللملة الطيات ، وتضرجت لحيته بصبغة الحنّاء ، وَخَبَّ في قَبائمه
القشيب ، وجبته الفضفاضة مهدّلة الكمين ...

وأدرك التغير صوته ، فانقلب هُزاله وخفوته قوة وجهارة ، وأصبح
يصلصل في أنحاء الدار صليل الجرس الرنان ...

وكان « محمد افندى » يسمعه ، فلا يملك إلا أن يرضى بتلك
الحركة الدائبة لمصلحة داره ، ورعاية شؤنه . ولكن هذا الصوت
المجلجل على الرغم من ذلك كله ينفذُ إلى أعماق قلبه ، يحمل إليها
الحشية والرَّهَب ...

وَأَلِفَ الشيخ أن ينام إلى ارتفاع الضحى ، فإذا جاء ذكر هذه
النومة الممدودة في عُرْض حديثه لأهل الدار ، انبرى الشيخ يتحدث
عن تهجدّه وقطْعِهِ الليلَ تلاوةً وتسييحاً وصلابة ، فما يَطْغَمُ النوم
إلا بُعَيْدَ الفجر ... ومن شَمَّ أَصْدَ أمره علناً إلى الطاهى وإلى الغلام
ألا يزعجاه من نومة الغداة ، وألا يقلقا راحته بضجة أو صياح ...

وفي ضحوة يوم اشتبك الغلام والطاهى في حوار ، فما كاد يعلو
صوتهما حتى انفتح باب مخزن المئونة ، وبدأ الشيخ محمراً الوجه ،

متنمر العين ، وثأب الخطا ، وفي يمينه عصا خيزُرانة ... وسرعان ما صبَّ جام غضبه على الغلام ، منكرّاً عليه إقلاق راحته ، وإثارته من نومه ، وما هي إلا أن أخذ بمخنّقه ، وانهاه على جوانبه ضرباً بالعصا ، دون إشفاق ...

وبلغت الجلّبة سمع ربّ الدار ، فأقبل يستطلع الأمر ، فراه ما شهد من صولة الشيخ وضراوته ... هذه أصابعه تشبّث برقبة الغلام ، وتلك يده تعلو وتهبط بالعصا ، كأنما يحركها عفريت من الجن ، وهاتان عيناه تجحّظان ويتوقّد فيهما الشر ... فأما الغلام فكانما هو دجاجة بين يدي ذابحها ، لا تملك إلا الحشجة والأنين ...

رأى « محمد افندى » ذلك ، فأدركته بالغلام شفقة ، بيد أنه لم يستطع أن يقول كلمة ، وألقى قدميه تتراجعان ، وصادفته زوجه في طريقه ، فهمهم يقول :

الولد جدير بالعقاب ... للدار حرمة يجب أن تُرعى ...

ولوحظ على رب الدار أنه يطيل مكوثه في الفراش صباحاً غير نائم ، فما يريمُ السرير إلا إن جلجل صوت الشيخ هنا وهناك ... فيم التبكير باليقظة ؟ أليس لجسده عليه حق ؟ الراحة قبل كل شئ !

على أنه ما يكاد يطرق سمعه صوت الشيخ ، حتى ينفلت من سريره كأنما أنشيط من عقال ، وفك من إसार ... فيبرز إلى مستشرف الدار ، مسرّياً عن نفسه الملوّل

٢٢

وأذِنَتِ الفتاة لنفسها أن تتدلل على زوجها وتتجنى ، ولم تلبث أن تغالت في دلالها وتجنيتها ، فكثيرا ما جاءت تجلس على ركبتيه تداعب خده بيدها الرخصة ، وإذا بأصابعها تندس إلى صدره ، فتغترف منه النقود ... ثم تقفز عن حجره متضحكة ، فإن غضب الرجل ورغب إليها في رد ما غصبته إياه ، علت بصوتها قائلة :

أرني براعتك ... إن طلنتي كان لك ما شئت ...

فيحاول اللحاق بها ، فتراوغه وتداوره ، حتى يأخذ منه الجهد كل مأخذ ، ويرتمى على المقعد منتفخ الأوداج ، مكروب الأنفاس ، يجمجم حانقا ، فتتظاهر الفتاة بالندم والتحسّر ، وهي تقول :

أحسبتني طامعة في أخذ مالك ؟ إنك لا تفهم المداعبة !

وما هي إلا أن تواجهه كالغضبي ، وهي تقول :

خذ نقودك ، ولا تحسّق علي !

ثم تتداني منه ، وهي تغض من طرفها ، وتقلص من قسماتها ، فإذا جاورته جلست صامتة باديا عليها الجدد والاغمام ...

فيفكر « محمد افندى » في أمر الزوجة هنيهة ، ثم يشعر بما عليه

من تبعة فيما كان ...

إنه المعلوم ...

لقد انقلبت الفرحة بسوء تصرفه تَرَحُّحة ، ولقد تغير الموقف من
ملاطفة ومداعبة إلى مضايقة وانكسار خاطر ...
إنها فتاة طروب لعبوب ، يجب أن تساس بغير هذا العنف ، وأن
تُحاسِبَ على غير هذا النحو ...

لقد أفسد الموقف ، وعليه إصلاحه !
وفيما هو سابح في مراجعة نفسه وتأنيبها ، تمد الزوجة يدها بالنقود
إليه في صلابة وتجهم ، قائلة :

إليك نقودك التي عكرتُ علينا صفو المجلس ...
فيرد الرجل يدها في رفق ، وهو يقول :
ليست المسألة مسألة نقود ، أبقها معك ... أتُحسِّين أني
أُضنُّ عليك ؟ لقد أخطأتِ التقدير !

فلا تكاد الزوجة تسمع ذلك منه ، حتى تثب إلى عنقه تغمره
بالقبلات والمعابثات ، وهي تقول :

لا حرمنى الله ذوقك وكرمك يا نور عيني وبهجة فؤادى ...
كانت أمثال هذه المواقف تتكرر أشكالا وألواناً ، فيتجشم لها
الرجل من النفقة ما لا طاقة له به ... ولكنه يُلَبِّى نفسه منساقاً لا يجد
السبيل إلى الخلاص .

٢٣

وظلت صيحات الشيخ ترجّ الداروتز داد علوّاً وُعتوّاً يوماً بعد
يوم ، وربما اتفق « لمحمد افندى » أن يسأل الشيخ في هواة
وملاينة :

ما الخبر ؟

فيقف الشيخ أمامه سامق الهامة ، مجنّح الذراعين ، كأنه تسر
غَضوب ، ويقول :

يا سيدنا البك ... لقد خربتُ الذمم ، وفسد الناس ، فلم
يَعودوا يَخشون الله ... إن حولك ذئابا لا يتورعون عن التهب
والافتراس ...

وعلى الرغم من هذا الدفاع الحارّ ، كان « محمد افندى » يحس
أن مخزن المثونة قد نُزِعَتْ منه البركة ، فهو بفضل رقابة شيخه الصالح
ينهار ويتداعى ، على نحو يثير الدهشة والعجب ، حتى كنّ الأرانب
كان يتناقص أوضح تناقص ، على الرغم من تغذيته دوماً بوارد
جديد ...

وأُسفر يوم عرف فيه « محمد افندى » أن زوجه تستقبل بين جنبيها ولياً لعهدده ... فعاجلته فرحة وإشراق ... ثمة وليد سيطالعه بعد شهور ... وليد يضاف اسمه إلى القائمة السابقة الحافلة بالبنين والبنات ... ولكن ما أئينَ الفرق بين اللفيف القديم والوليد الجديد ... أولئك لا صلة بينهم وبينه ، فكأنهم ليسوا منه ... أما هذا الجديد المنشود فله وَضْع غير ذلك الوضع ... إنه يَقْدَم كالزهرة النضيرة يَضُوع عطرها من حوله ، فيملأ حياته من بهجة وإيناس ... إنه يَقْدَم ليتوَج الدار ، مثيرا فيها النشاط والمراح ... إنه ابنه الوحيد الذى يعرفه حق المعرفة ، ويتمتع به جدّ التمتع ... إنه ابنه الوحيد الذى يَفْرُغ لتنشئته تنشئة طيبة وَفْقَ هواه ... إنه ابنه الوحيد الذى هو جدير بالانتساب إليه !

وجعلت الفتاة تَرَكْنَ إلى فراشها متكاسلة ، خالية إلى جنينها ، توفر له الراحة والاطمئنان ...

ومرة أقبل « محمد افندى » على زوجه ، مستلقية على فراشها تنظاها بالتعب والإعياء ، فانحنى على حياها يُودعه قبله ملاطفة وإقرار بالحميل ، فإذا هى تُزَجِّيه عنها فى جفوة وضيق ... فعجب

الرجل مما أبدته ، وقال مبهوتاً :

أُكرهين أن أقبلك ؟

— أنفاسى محتبسة ، وأنفاسك تحمل من التوابل ما يُغثى نفسى ...
فابتعد الرجل عنها قليلاً ، واتخذ مجلسه فى استنكار وضيق ...
وفى هذه اللحظة قَدِمَ الشيخ وقد سمع ختام الحديث ، فانهال
على ابنته تأنيباً وتغزيراً ، وجلس بجانب « محمد افندى » يُطَيِّب
خاطرهُ ويترضاه ...

ولم ينقض عجب « محمد افندى » حين قَدِمَ له غداؤه فى
اليوم التالى ، فعرف أن الطعام قد خلا من التوابل ... فلما سأل
الطاهى جليّة الأمر ، أجابه من فوره :
هذا أمر سيدنا الشيخ ...

وهرعَ الرجل يدرس هذه المشكلة التى تمس جوهر معاشه ،
فقر قراره على أن يناقش الشيخ فى أمره مهما يكن من شىء ...
فتشجع مقتحماً مخزن المئونة ، قائلاً لشيخه :

أحق أنك أمرت بإخلاء الطعام من التوابل ؟

— نعم ... أنا يا ابنى ... أنا الذى طلبت من الطاهى أن
يفعل ذلك ...

نطق الشيخ بهذه الكلمات فى صوت لين المكاسر ، رقيق النغم ،
سيل من عذوبة وصفاء ... فسأله « محمد افندى » :
ولم هذا ؟

— من أجل صحتك ... كلنا نهتم بصحتك الغالية ... نبذل
في سبيلها كل شيء ... ما أضرّ التوابل بالصحة ... هكذا
أكدت « تذكرة داود » ... يجب أن تكون بصحتك معنيا ...

— ولكن ليس في صحتي ما أخشاه !

— إذا أثقلت على نفسك بهذه التوابل عاجلتك الشيخوخة ،
ثم تندم ولات ساعة مندم !

— أى كلام هذا يا سيدنا الشيخ ؟ !

— هذه نصيحتي خالصة إليك ... إن اتبعتها ، فبها ... وإلا
فاصنع ما شئت ...

وكان الشيخ ينطق بجملة الأخيرة في لهجة يشوبها التهديد والوعيد...
ترك « محمد افندى » وكر الشيخ يكاد يتميز غيظاً ، فبنى عزمه
على أن يقصد تورا إلى المطبخ ، لكي يبلغ الطاهي نقضه لذلك الأمر
الذى صدر إليه بإخلاء الطعام من التوابل ... ولكنه ألنى قدميه
— دون وعى — تقودانه إلى مُستشرفِ الدار ، فرمى بجسده على المقعد ،
بسرّح بصره في الأفق ، ووجهه يتلهب ...

٢٥

وعلى توارُد الأيام ازدادت الزوجة من تراخ وتكاسل ... لا تكاد تزول
عن فراشها إلا عند الضرورة القصوى ، فهي منطوية على جنينها انطواء
الشحيح على كتفه الثمين يخشى انفلاته ، ويتوقى الندم على ضياعه ...
وأحس « محمد افندى » أنه كلما دنا منها عمِلت على إقصائه
معتلة عليه بألوان التعليلات ...

وغربت عليه شمس يوم رأى فيه نفسه قد أُقصِيَّ عن حجرة
الزوجة إلى البهو ، حيث هيء له فيه مبيت ...
وذات يوم نادى الغلام صبيحا لبعض شأنه ، فلباه الطاهى مخبراً إياه
بأن الغلام قد أُخْلِىَ البارحة من خدمة الدار ، فسأله « محمد افندى » :
من أخرجه ؟

— سيدنا الشيخ .

— لم ؟

— لا أدرى ... هذا أمر سيدنا الشيخ ...

فاستجمع « محمد افندى » واستعصم واستعان بالله ... وجرأ
قدميه إلى وكر الشيخ يفتحه فى شأن الغلام ، فوجد الشيخ منكباً
على غرارة الصابون يعد ويحسب ، فسأله :

ما حكاية الولد ؟

فأجابه الشيخ ، وهو ماض في عدّه وحسابه :
لقد طردته ... إنه غلام كسلان ، صَخَاب ، منهوم ...
ورفع رأسه عن الغرارة ، فبدا مغضنّ الجبين ، كالح الوجه ...
واستأنف قائلاً :

إنه كالذئب الجائع ... لوبقى تخربت الدار ... وفي طرده
اقتصاد لمرتبته الذي يستولى عليه بلا جدوى ...
ثم علا بصوته الأجش قائلاً :

يا سيدنا البك ، الاقتصاد لازم ... يجب أن ندبر أمور
الحياة ، وإلا واجهنّا المستقبلُ بأيام عابسة ...
فهمهم « محمد افندى » قائلاً :

ولكن الغلام كان يتولى شؤنى ...

— الطاهى يستطيع القيام بما تأمره به ...

— إن الطاهى أعجز من أن يتم عمله الموكول إليه ...

فازداد وجه الشيخ جهامة وصلابة ، وقال محدّ الثبرات :

لقد فعلتُ ما رأيتهُ الأصلح ، متوخياً خيرك ، فافعل أنت

ما بدا لك ...

وانكفأ على غرارة الصابون ، يستأنف العدّ والحساب ، وهو

يجمع مخاطباً « محمد افندى » :

إذا شئتَ إرجاع الغلام إلى خدمتك ، فافعل ... ولكن

لا تلمنى إذا جرى ما لا تُحمد عقباه ... البيت بيتك ،
ولك فيه مطلق التصرف ... فأمر بما ترى ...

وخرج « محمد افندى » يحمل فى سمعه تفويض الشيخ إياه أن
يفعل ما يريد ، وتصريحه له بأنه سيد البيت ، وأنه صاحب الأمر
فيه ... ولكنه لم يجد سبيلا إلى استخدام ذلك التفويض ، وتحقيق
تلك الإمرة ، فلاذ بمشترَف الدار يلتمس فيه تفرجاً لما يجد فى
نفسه من كربة وضيق ...

وما إن استقر على مقعده قليلا حتى أدركه الظمأ ، فصفق ،
ثم صاح :

كوب ماء ... كوب ماء ...

فلم يستجب له أحد .
فكرر الصيحة ، فلم تُرَو له غلة ، فاضطرب أن ينهض ، ومشى
إلى مرافق الماء ، وقصد صينية القلل ، فتناول منها قلة وهم أن يكرع ،
فإذا هى فارغة ، ومدّ يده إلى الثانية فإذا هى أفرغ من الأولى ،
فأخذ الثالثة فوجدها أعطش منه ، فارتجف غيظاً ، وما أسرع أن
قذف بثالثة القلل إلى الأرض ، فتكسرت ورنّ لانكسارها صوت
طَبَق أرجاء الدار ، فُسِمعت الزوجة صائحة تقول :

ما هذا الإزعاج للراحة ؟ ألا نستطيع أن نهدأ لحظة فى هذا البيت ؟

وما كادت تم قولها ، حتى هَدَرَ الشيخ يقول :

ماذا ؟ أى شىء انكسر ؟

فسرت في دم « محمد افندى » خشية ، ورمى حطام القلة في
 حيرة وقلق ، فعاود الشيخ هديره أشد عنفاً :
 ماذا ؟ أى شىء انكسر ؟
 فانبعث صوت « محمد افندى » هزى لا متخاذلاً يقول :
 لا شىء ... لا شىء ... قلة سقطت ...
 فهمهم الشيخ :
 لا حول ولا قوة إلا بالله !
 وتزحزح « محمد افندى » عن مرافق الماء ، مؤخراً إرواء ظمئه
 إلى حين ...

وسرعان ما تكاثرت شهوات الوحَم عند الزوجة . فلها في كل ساعة
 مطلب جديد ، ورغبة تتفنن في تلوينها ما وسعها التفنن . فإن تراخى
 « محمد افندى » في الاستجابة لتلك الشهوات ، أو استمهل في تحقيق
 هذه الرغبات ، بادرت الزوجة بإلقاء التبعة في عنقه إن أصيب وليده
 بضير ، أو لحقه مكروه .
 وكثيراً ما عانى « محمد افندى » ألواناً من المتاعب ، وجساماً
 من النفقات ، في سبيل مطالب الزوجة الوهمى ... فمن ركوب

للدواب ، ومن احتمال لوقدة الحر في الظهيرة ، ومن تنقل بين الأسواق والمدن ، طلباً لما هو عزيز المنال من فاكهة ومتاع .
وكانت الزوجة منذ لزمت فراشها ، يُحمل إليها الطعام في مرقدها ، وكان الغلام يتولى ذلك قبل إقصائه ، فتولاه الطاهي من بعده ، فأما « محمد افندى » فطعامه يُحمل إليه في صينية خاصة ، حيث يقيم في مستشرف الدار ...

وبينما كان « محمد افندى » يوماً يتلهب انتظاراً لغدائه ، إذ أقبل الطاهي خاوي اليدين ، يقول :

أتسمح ياسيدنا البك بالحضور إلى المطبخ ...

— لماذا ؟

— لتحمل صينية « الست » إليها ...

فحمل الرجل في وجه طاهيه وقال :

أنا أحمل الصينية ؟ ... أمجنون أنت ؟

— لستُ بمجنون يا سيدنا البك ...

فصاح « محمد افندى » :

أوضح يا رجل .

فقال الطاهي في غير مبالاة :

هذه أوامر سيدنا الشيخ ...

فهبَّ « محمد افندى » من فوره ، وقد انتفش شاربه ، ودمدم

قائلاً :

أوامر سيدنا الشيخ ؟ سأرى ماهى أوامر سيدنا الشيخ هذه ؟ !
وطاوعته رجلاه على أن يقتحم الوكر الحصين ، فألقى شيخه
جالساً متشمرّاً يَكِيلُ السمنَ فى نشاط واهتمام . فقال له منهج
الصوت :

أحقّ أنك أمرت بأن أحمل الصينية إلى البنت ؟
فرفع إليه الشيخ عينه قائلاً فى صوت متظامن :
هذا صحيح يا بُنى ! ... إذا كان الأمر يضايقك فلا
تفعل ...

— أيصح أن أكلفَ مثل هذا العمل ؟ أليس فى المنزل من
يخدم ؟ .

فأجاب الشيخ فى لهجته المتظامنة :
إن أردت الحق فلا خادم فى الدار ...
— والطاهى ؟

— الطاهى ؟ ... الطاهى ! ...
وهز الشيخ رأسه فترة ، وهو يُمِيط عن يديه ما علق بها من
السمن ، وقال :

أيلق أن يقتحم رجل أجنبيّ فراش زوجك ، وهى فى حالة
حمل ؟ إني أعتقد أن نفسك الأبيّة لا تقبل ذلك ...
فبوغت « محمد افندى » بهذه الإثارة ، وصمت هنيهة ، وهو
يهرش رأسه ، وهينم :

على أية حال يجب أن نُحضر خادمة ...

— فلنبحث عن خادمة ... أما الآن ...

— الآن ؟ ... الآن ؟ ...

— إذا رأيتَ أن أقوم أنا بحمل الصينية إليها ، فإنني أفعل عن

طيبة خاطر ...

وفهض الشيخ في جهد ، وما لبث أن رُئى وقد عاجله سعال
متتابع ، يشقق حلقه ، ويهزّ أركانه ، ثم إذا هويترنح رويدا ،
ويوشك أن ينقضّ ، فأسرع إليه الطاهي يحفظه من السقوط ،
ويقول له :

يا سيدنا الشيخ ... أرح نفسك ... إنك تُضني صحتك
في خدمة الدار ...

وما زال الطاهي بالشيخ يسنده ويُعني به ، حتى تراءى بأنه قد
أفاق ، وعادوه التمالك ...

وسُمع يههم :

رحمة الله على أيام زمان ... أيام المروءة والإخلاص وتواضع النفوس ...

ثم التفت إلى الطاهي ، كأنما يوجه إليه قوله :

رضي الله عنك يا عمر يا أمير المؤمنين ! ... لم تستنكف أن

تطهو بيدك الطعام لامرأة !

ثم مصّ شفّتيه في تحسر ، وسرّح ببصره طويلا في الأفق ،

وقال في ترتيل :

إنما المؤمنون إخوة ... وتعاونوا على البر والتقوى ... صدق الله العظيم ! .

وَحَلَّلَ لِحَيْتِهِ بِأَصَابِعِهِ ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ قَائِلًا :
المؤمن للمؤمن كالبنیان "يَشُدُّ" بَعْضُهُ بَعْضًا ... صدق رسول الله
في حديثه الشريف !

وتهاطلت على لسان الشيخ آيات وأحاديث وحكم تحضّ على
التعاون بين الأزواج ، وتُشِيدُ بالتواضع وخفض الجناح ...
وكان كلما استرسل في ترتيله ، اشتدَّ صوته ، واعتدلت قامته ،
فما إن قارب الفراغ من إلقائه ، حتى كانت أرجاء الحجرة تتجاوب
فيها أصدااء كأنها هزيم الرعود ينذر غلاظ القلوب المتكبرين بأنكال
وجحيم ، وطعام ذى غُصَّةٍ وعذاب أليم !
وارتد «محمد افندى» عن الحجرة ، يجرجر خطاه ، مطأطئ
الهامة ، يحسّ أثقال الخطايا تتراكم على منكبيه ...
وساقته رجلاه إلى المطهى ...

٢٧

وانتظر الرجل أن يظهر للخادمة أثر في المنزل ، وطال به الانتظار ...
ولم يكن "بد" من أن يضطلع بشئون الزوجة ، لا يقتصر في خدمتها

على حمل الطعام إليها ، وإنما يلي من أمورها كل ما تمسّ حاجتها إليه ...
 وكان كلما غمزه شعور بالغضاضة من هذا الامتحان ، صافحت
 أذنيه أصداً مطوّلات الشيخ في الترهيب من التكبر ، ومجانبة التواضع ،
 والتقصير في عون الأقربين ... فمارس عمله مجتهداً في تسويغه لنفسه ،
 متكلفاً الرضا والارتياح .

بيد أنه على الرغم من ذلك ، كانت تجوزُ به لحظاتُ همٍّ وضيقٍ ،
 إذ تثور نوازعه ، فيتسخط ويتشكى ، وتملأ النقمةُ ما بين جنبيه ،
 ويتفق أن يمرّ به الشيخ في مثل هذه الحال ، فيقف عنده متفرباً
 فيه ، قائلاً :

أكبر ظني أنك غير مستريح إلى مشاركتنا في بعض واجبات
 المنزل ...

فيرفع « محمد افندى » رأسه إليه ، مجيباً في صوت وُسنان :

لا يخطرُ لي هذا الأمرُ بيال ! ...

فيتداني منه الشيخ مُربّثاً كتفه ، يقول :

نحن جميعاً في خدمة القادم الجديد ... ولدك العزيز ...

كل صعب في سبيل خدمته يهون !

وتكاثرت مطالب الزوجة ، ولم تعدْ هذه المطالب تدلّلاً
 وملاطفة كما كانت من قبل ، وإنما أصبحت باباً من الحقوق المشروعة
 ليس منه مَناص ...

هنالك وليد يوشك أن يُهْلَّ على الدار بطلعته الوضيئة ... وإن

لهذا الوليد لحقوقاً. يجب أن تُرعى ، ومطالب لا بد أن تُستوفى ...
 ماذا فى أن تطلب الزوجة صنوفاً من الثياب والأمتعة لذلك
 الوليد ؟

ماذا فى أن تطلب الزوجة إنشاء حظيرة جديدة للدجاج تنافس
 كنّ الأرانب ، حتى تستطيع هذه الحظيرة أن تُمدّ الأم النُفَساء
 بما يلزم لها من الطعام ؟ ...

ماذا فى أن تطلب الزوجة جمعاً من الكباش لإحياء يوم السَّبوع ،
 وللوفاء بالنذور لأولياء الله ، حمداً له سبحانه على ما أنعم وتفضل ؟
 ماذا فى أن تطلب الزوجة كل هذا وغير هذا كله من مطالب
 ورغاب ؟

ولقد انتهى الأمر « بمحمد افندى » تحت وطأة هذه الأعباء
 إلى أنه كان إذا ذكر أمامه حديث الوليد الجديد ، تُخيل إليه أنه
 مهدد بمهبط شيطان يُنشب أظافره فى عنقه !

وكثيراً ما انفرد « محمد افندى » بنفسه فى مستشفاه ، يعرض
 تلك الحِقبة الريفية من حياته : ماذا ربح منها ؟ وماذا خسر ؟
 ولا يلبث أن يضطرب خياله ، وتغيم أفكاره ، فيظلم أمامه
 وجهُ الرأى ، لا يدرى أغانم هو أم غارم ؟ وشقى هو أم سعيد ؟

٢٨

وفيا هو يوماً يصطلى حرّ تلك الهواجس والهموم ، إذ أقبل الشيخ
مقتحماً عليه خلوته ، وهو مترنح الأعطاف ، يتطلق محياّه في زهو...
وقال له :

أبشر ... لقد أرحتك من مسألة مهمة لم يكن لك بدّ من
عناء القيام بها !

فسدّ إليه « محمد افندى » نظره في امتعاض كظيم ، كأنه
يتساءل :

أىّ مسألة مهمة تلك ؟

فتابع الشيخ قوله :

لقد أوصيت بإعداد علبة ذهبية للمصحف الصغير الذى سيكون
تميمة الوليد ... ولن تكلفنا أكثر من عشرة جنيهات !

فصعدّ إليه « محمد افندى » نظره وصوبّه ، فتجلى له ما يتحلى
به الشيخ من عباءة قشبية ، ومُطرَف مزخرف ، وعمامة زهراء ...
وسرعان ما رجعت إلى مخيّلته « محمد افندى » صورة الشيخ منذ عهد
قريب ، وهو فى أسماه وأطماره ، بادی الذلة والبذاذة ... فبرقت
عينه ، وقال محتدّ اللهجة :

عشرة جنيهات ؟ ... عشرة جنيهات ؟
 فلاحه الشيخ بردّه :
 أتضنّ بعشرة جنيهات على حراسة وليدك العزيز الذي تعمّر به
 الدار ؟
 فتوهجت عين « محمد افندى » وأحسّ الغيظ يشتعل في صدره ،
 ونهض واقفاً يَرْجُفُ ويصيح :
 فلتنهدم الدار على رأس الوليد وعلى كل من فيها !
 وألقى نفسه يندفع مبارحاً مكانه كالزوبعة الهوجاء ، وانطلق
 إلى الطريق ...

وبعد قليل بلغ الرجل بيت المأذون الشرعى ، فلما أقبل عليه في
 ركنه منكباً على دفتره ، حيّاه تحية عاجلة . وقبل أن يسمع ردّ التحية
 قال في صوت زاعق :
 صل على النبي ...
 فارتاع المأذون لمَرَّآه ، ومسحُ لعابه ، وقال :
 اللهم صل عليه ...
 — لقد استخرتُ الله في تطليق المرأة ...

فتنحج المأذون وقتنا ، ثم قال :
 أبعَدَ الله الشر ... ماذا جرى من بنت ابن الشيخ ؟ إنها
 بنت طيبة ، وزوا جُكما قريب ...
 فصاح به « محمد افندى » صيحة مُنكرة ، قائلاً :
 قلت لك : صل على النبی ...
 — اللهم صل عليه يا أخى ... لیکن بالك رائقاً ...
 — بالی رائق ... ولكنی اعتزمتُ تطليق المرأة والسلام !
 وأعدَّ المأذون نفسه لإلقاء محاضرته فى إصلاح ذات البین ،
 والتنفير من أبغض الحلال ، ثم اندفع كالسيل يشقشق بالعبارات
 والجمل . بیّد أن « محمد افندى » قاطعه قائلاً :
 أرح نفسك من هذا كله ، فإنی أعرفه حق المعرفة ...
 — هذا واجبٌ علیّ أؤديه ... وإن الدين النصيحة ، ولك ما ترى ...
 — لقد انتهى الأمر ، ولا رادّ لقضاء الله !
 وسرعان ما دُونَتْ وثيقة الطلاق ...

٣٠

وشوهد « محمد افندى » بعد أيام يَبْرَح « كفر عقيق » متخذاً
 الطريقَ الزراعى العام ، يمشى مُنْسَرِقَ القوى ، مُتَمَقِّعَ الوجه ،

غائر العينين ، عليه معطفٌ مُعَبَّرٌ ، وفي يده صُرَّةٌ مهزولة حوت
كل ما يملك في دنياه من متاع ...

لقد أرغِمَ « محمد أفندى » على أداء مؤخر الصِّداق وما إليه من
نفقات ... وأحْدق به الدائنون ، فاستَوْفَوْا ما لهم من ديون ...
لقد فرغ اليومَ من « عملية التطهير » الأخيرة ، فخرج من
القرية على هذا النحو ، يحدوه مصيرٌ مجهول !

ال

لعا

ما

ص

اح

زَهْرَةُ المَرْقَصِ

١

في إضمامة من أوراق البردى العتيقة ، دُوِّنتْ هذه القصيدة
التي يبسطها شاعرها على النحو الآتي :

إلى من تسقط في يده هذه الأوراق ، أروى هذه القصة .
إنها غفل من الأعلام ، فأرخَ نفسك من محاولة التعرف لصاحبها .
إنه إنسان مثلك ، صَبَبَتْ نفسه إلى أن ينقل إليك هذا الحديث ،
لعله واجدٌ في ذلك تسرية ، كما أنت واجد فيه مَسْلاة !
أما أن تعلم : أَوْهَمٌ ما يقال أم حقيقة واقعة ؟ فليس في ذلك
ما يَنْقُصُ من قدر القصة أو يزيد ...
أى جدوى لك في أن تكون القصة من وادى الحقائق ، أو من
صيد الخيال ؟

ستقرؤها في فُسحة من وقتك ، وفرصة من فراغك ، فإن شاركتني
إحساسى وشعورى ، باركتك وطلبتُ لروحك أمنا وطمأنينة في

اجتيازها برزخ الأرواح ، ولجسّدك سلاماً ورفاهية في نأوؤسه الحجري .
 وإن لم تقع هذه الأوراق من نفسك موقعها المؤمل ، فلا تنكر
 على " ولا تلغى " ، إذ أضعت وقتك هباء ، واختر أن تكون سمح النفس ،
 كريم الخلق ، تنشّد الرحمة لهذا الشاعر المأخوذ الذي صبّ عصارة عمره
 زيتاً تضاء به دُبالَةُ الأوهام ...

هي قصة فتاة .

فتاة طالعت الحياة تمارس الرقص ، وتعرض فيها وفتنتها سلعة في
 أسواق المواخير ...

لم تكن بذات حسن باهر ، يجتذبك بروعة القسامة والوسامة ،
 ولكن روحها الحي المتألق كان يسرى في جسدها اللدن المشيق ،
 فيتضوّأ ، ويبثّ من حوله الفتنة والسحر ...

إنك لتحسّ نور ذلك الروح وحرارته يشفّ عنهما ذلك الجسد ،
 كما تحس ضوء الشمس ودفئها خلف غلاثل الغيوم .

إذا اتفق لك أن تراها عفو النظرة ، وهي في مألوف الرواح أو الغدو ،
 فإنك ربما ترفعت عن أن تعاود إليها النظر ، بيد أنك ما إن تلمحها قد
 توسّطت مَدَّ آر الرقص ، وجعلت تنقل قدميها في خفة وتراوح بين يديها بسطاً
 وإرخاء كأنهما جناحا طائر ، وتأوّد بنحصرها كانسياب الجدول الرقراق ،
 حتى تراها وقد تضوّعت منها فتنة نفاذة أخاذة ، وانبعثت من حوالها قبسات

مشوبة تتغلغل بحرّها بين الحنايا والضلوع .

لم تكن تتحلى بزينة بالغة ، أو تتحسن بملبس زاهٍ ...

سرّها وسحرها كمين في ذلك الرّوح الوهاج ...

إنه ليظل كائناً هو حبيسٌ قُمقممٌ أحكم صمامه ، فإذا ما احتوتها
ساحة الرقص ، تخلى الصّمام عن مكانه ، وانطلق الروح كأنه بحورٍ
مسحور يشيع ولا يفتأ يشيع ، حتى يملك على الناس مسارب الأنفاس ،
وقد تثير شعرّها في الرقص ، وكان سبّط الغدائر فاحماً ، يتهدل
كأنه سعف النخيل تعابته نسيمات الأصيل .

إنها تستعين بشعرها على التفتن في الرقصات ، فتارة هو غدائر تتواثب
على الكتفين ، وطوراً هو سابح على الصدر ، وحيناً هو غلالة تنسدل
شفافة هفهافة توقظ الإغراء .

وسرعان ما طار لها في الأرجاء صيت ، وجرت بحديثها ألسن ،
فلم يبق في الأرجاء قاصيها ودانيها من لم يعرف « زهرة المرقص » .

وما هي إلا أن تبوّأت مكانتها في سوامر الأمراء ، ومحافل السراة .
فراحوا يهافتون عليها تهافت الهوام على الشراب المعسول ، يعبّون منه
عبّ العطاش !

وكانوا يُثقلونها بأمداد من مال ومتاع ، فثقلهم هي بألوان من
بساط دلال وميطال .

لا يصدّهم ملل عن التلطف والتقرب والزلفى .

ولا تأخذها هواة ولا رحمة في تكسب واغتنام .

وما برح نجمها يتصعد ويأتلق ، حتى كان ما ليس في حِسبان .
لقد توارت « زهرة المرقص » عن العيون ، فاعترى الناس طائف
من دهشة وأسف .

أين ولت ؟

أما أنها ماتت ، فلا ...

لقد خلا ناووسها من جسدها المعطر ... ذلك الناووس الذهبي
الذى شُغلت بإعدادها ، وشغفت بتنميقة ، بضعة أعوام ...

أتراها ظننت إلى ما وراء التخوم ، تقصد الشرق الأقصى ،
لتروع بفنتها أقيال الممالك ، وغطاريف الشعوب ؟

لو كان ذلك شأنها ، لترامى إلى الأسماك حديثها ، فإن أنباء
قمنية أن تسيح بها طوافة النسيم ، وأن ترف بها أجنحة الطيور ...

وظل استخفاؤها لغزاً لا يتبين له وجه ...

هذا قصرُها ، قد تخلت عنه ...

وتلك حُلاها ، لم تعبأ بها ...

عجباً لها ... زهدت في كل شيء ، وتولت تنشُدُها تائهاً

الظنون !

وتنالت الشهور ، والناس على عهدهم يلهجون بذكر « زهرة المرقص »
ولياليها الملاح ، ولا يملون في شأنها السؤال والاستخبار ، يقلّبون الأمر في

على شتى وجوهه ، ويتمثلون في استخفاها أشتاتاً من الفرض والتخمين .

فمن قائل : إنها برمت بحياة الظهور والترف ، فشبهت نفسها

إلى عيشة شظف وانزواء ، ومن شتم احتوتها مثابة كاهن من الزهاد ، في منقطع عن العمران .

ومن راجم بالغيب يرى أنها لم تجد لها كفوا بين الرجال ، يقدرها قدرها الحق ، فأثرت أن تكون للنيل العظيم عروساً تفنى في أبوته الخالدة !

وهناك من كان يزعم أن ربّ الأرباب « رع » قد أغرم بها ، فانتزعها من بين أحضان البشر ، وأفرد لها عشا في ملكوته الرحيب تحيا فيه ، وبين الفينة والفينة يهبط إليها ، ليتعرف أى شىء ذلك الذى يفتن به البشر من لذادة ومتاع ؟ !

وكأين من قصص وأساطير أنيقة الوشئ ، جميلة التنسيق ، تتناقلها الألسن في شأن تلك الراقصة التى ارتفعت عن أعين الناس ، كأنما أدبر عنهم إله !

٢

وذاّت مساء جلست لمة من الناس ، يتنادرون أمام إحدى الدور ، الأبر في حاضرة الجنوب .

وساقهم شجون الأحاديث إلى أنباء « زهرة المرقص » ، فشرعوا نفس يتنافسون في تجلية ما يدور حول استخفافها من أقاويل .

وكان بين السمار شيخ أشعث أغبر ، تقاذفته الفلوات والأودية ،
وعركته الرحلات والأسفار . فأما أديم وجهه ، فقد كان ملوحاً يضرب
إلى السواد كأنه الفخار صهده النار ... وقد عملت فيه السنون
ما يعمل المحراث في الأرض من أخاديد وتجاعيد . كل خلجة من
خلجاته تفصح أنه جواب آفاق تسلمه النجاد إلى الوهاد ، لا قرار
له في أرض ، ولا مقام له في مَشْوَى ...

كان الشيخ في الحلقة سكوته خافض البصر ، كأنما أخذته سنة
من النوم ، فلما خوت وفاض الرواة من الأنباء ، وكلت ألسنة
الجلال من التحاور ... سما الشيخ برأسه ، وانفجرت أجفانه عن
ومضات خابية كابية . ثم جعل يعتصر جبهته هنية ، وشرع يتكلم
بصوت مستضعف منهوك ...

قال :

إنكم متسائلون عن تلك التي تلقبونها «زهرة المرقص» ... وإنكم
لتقصون من أنبأها حديثاً عجيباً ... ولئن لم يكذبني ظني لتكون
تلك الفتاة هي التي شهدت في بعض أسفار القسوى ... شهيداً
في مطرح نبا عن العمران ، يكاد لا يُعتد في عالمنا الآهل
المسكون ...

وعاود الرجل صمته ...

فتصدت له العيون تسدد نظراتها كأنها سهام تحاول أن تنفذ
فيه ، لتثيره وتبعثه على مواصلة الكلام ...

وران على المجلس صمت أشبه شئ بصمت المسجى في ناووسه ،
ينتظر عودة الروح .

وعيل صبر الجمع ، وضاقوا ذرعاً بهذا الترقب والانتظار ، فازدحت
الأسن بغطّة تقتحم على الشيخ سكتته ، وتدانت منه الأجساد ، حتى ضاقت
حولها الحلقة ، وأحس الأنفاس تتكاثف على وجهه ، كأنها زوبعة هوجاء
من زوابع البيد التي قاسى عنفوانها في رحلاته من صُقع إلى صُقع !
فصاح الرجل وقد احتقن وجهه المعقد ، قائلاً :

حسبكم من تعجّل !

ثم أشرع سبابته إلى نجم ألاق في عرض السماء ، وقال :
إن هذا النجم أقرب لكم منلاً من تلك التي تنشُدونها ...
فازداد الجمع تألباً عليه ، وإحداقاً به ، واستحثاثاً له على
الإفضاء بما عنده ...

فشعر الرجل بأن أنفاسه تحتبس ، وما لبث أن غاب عن وعيه ...
فلما ذهب عنه الإغماء ، ألقي نفسه في بهو ترامي أرجاؤه ،
ويسطع ضياؤه ، ويشيع فيه نفح الأطياب ...

وطالعه تُمهدٌ ضخم سوامق ، عليها النقوش والتهاويل . وراعته
أستار من الخمّل تحجب النوافذ والأبواب .

فجعل يرجع البصر كرات في ذلك البهو الرائع ، حتى استقرّ
تنظره على منصّة يعتلى عرشها رجل متألّئ في أكسيته الزاهية ، ومن
حواليه حشم وأتباع ...

why?

وصافحت أذن الشيخ هذه الكلمات :

لقد ثاب إليه رشده ... قربوه ...

وما إن نطق سيد المنصة بكلماته ، حتى أحس جوابُ الآفاق
بأيد غلاظ شداد تحمله ، فتلقى به عن كُتب من قوائم العرش . فألقى
نفسه بهمهم :

أين أنا ؟ ماذا يُرادُ بي ؟

فدنا منه رجل وثيق الأركان ، فارع القامة ، في حلة حريرية واض
لماعة ، وهو شاكي السلاح ، أظهر ما يظهر من قسماته نُدبة هي
أثر جرح غائر في جبينه ...

وما هي إلا أن قال للشيخ :

أنت بين يدي الأمير حاكم الجنوب المحفوظ بعناية رب
الأرباب ! ... وإنه لأمرك بأن تفضيَ إليه بما في علمك من شأن
« زهرة المرقص » ...

فأطرق الرجل وقتاً يللم ما تبعثر من ذكرياته ، ويجمع شمل
خوابره ، ثم قال حائر النظرات :

ليس لدى ما أضيفه إلى ما قلته ... إنها في مطرحها القصي
وإن نجم السماء لأقرب إليكم منها منالاً ...

فعلت صيحةُ الأمير ، وهو يتفرض من غضب :

ليس في الوجود ما يتعذر علينا منأله أيها الصعلوك الشريد
أصدقي أعلى ظهر الأرض هي فنشدها ، أم طوام

«أوزوريس» في ملكوته الخفيّ ؟

فأمعن الشيخُ في شروده ، وهمهم :

حقاً لست أدري !

فصاح الأمير حازم اللهجة :

ألم تقل إنك رأيته ؟

فقال الشريد ، وحادّ قناه تدوران في منحجيريّهما من حيرة

ريّة واضطراب :

بلى ... رأيته ... رأيته بعينيّ هاتين !

ورفع سبّابته يشير بها إلى كلتا عينيه . فقال الأمير :

إذن هي في الحياة ...

— من يدري !

وتعالت بين حاشية الأمير همهمة تساؤل واستيضاح .

وتحرك الرجل الحربيّ صاحب الندبة الغائرة في جبهته ، وما لبث

أن رفع يديه بسوط غليظ ، وقال :

أفصح ، وإلا ألهمتُ بالسوط ظهره ...

فريّع الرجل ، وتكمش يرجف ، ثم صرخ بصوت راعش :

قسماً بربّ الأرباب إني لصادق فيما حدثكم به !

وغامت الدنيا لعينيه ، واستلقى على أديم الأرض ، يستغيث

يد هاذياً ...

وتقدم الرجل الحربيّ ذو الندبة من الأمير ، قائلاً له :

محبول هذا الرجل يا مولاي ، أو لعله محموم !

— سواء أكان محبولا أم محموماً ، فإننا لن نُفلقته حتى يطلعنا
على سره في شأن « زهرة المرقص » !

وأقيم جَوَابُ الآفاق في حجرة من حجر القصر ، مخفوراً بأحراس
محوطاً بأسباب العلاج والتبريض ، مكفولة له راحة العيش ...
وما انقضت أيام حتى استعاد الرجل طمأنينة النفس ، وصفاء
الفكر

وكان في الفينة بعد الفينة يزوره الرجل الحربي ذو الندبة الغائرة ،
في يمناه سوطه يتلاعب به ، فيتحدث إليه تارة متبسّطاً يستدرجه ،
وطوراً مغلظاً له في القول يتهدّدُه ، فما قدّر على طول المجاهدة والمعاناة
أن يستخلص منه إلا أمشاجاً أشبه شيء برؤيا نائم ...

عرف الرجل الحربيّ ذو الندبة أن جواب الآفاق رأى « زهرة
المرقص » ليلة في ضوء القمر ، وهي ترقص على مَرَج كأنه بساط من
سندس ، تُحدّق به نُخيلات فوارع ، يحوس خلالها جدول رقراق ...
رأها ، ولكن كما يرى طيفا من الأطياف ، لا تأخذه العين إلا للحا ...
وكانت تتردّد في هذه الساعة أنغام ناي حنون ، لا يتبين
له صافر ...

ولبث الجَوَاب وقتاً بمرأى من ذلك ومسمع ، لا يعلم أطال
به وقته أم قصر ؟ ... بيد أنه موقن أصدق اليقين أن صوتاً شديداً
هتف من حوله :

ابتعدُ أيها التائه الشريد عن هذا الوادى المقدس ... تنحَّ عنه
لا تطأه بقدميك ... انج بنفسك ، وإلا حاقت بك غضبة القدس
الأعظم ، وحقت عليك لعنة الأبد !
ففر الجواب من فوره مذعوراً ، مستطار اللب ، يضرب فى المفاوز
والفلوات ...

ذلك قصارى ما انتهى إليه حديث جواب الآفاق فى شأن
زهرة المرقص » ...

٣

وجاء يوم شاهد فيه أهل المدينة قافلة تبرز من قصر الأمير ،
على رأسها ذلك الحربى الفارع ذو النُدبة الغائرة ، وعن اليمين جواب
الآفاق ، ومن ورائهما الأعوان بينهم حَمَلة الأمتعة والأزواد .
وتناهى إلى المسامع أن القافلة إنما تبغى سفرأ بعيد الشقة ، فى
مهمة ذات بال ...

وَفَصَلَت القافلة عن المدينة تودع الرفاهة والأمن ، بجوار
النيل السعيد ، وتستقبل ذلك الخضمَّ العسجدى من الصحراء ، تعانى
فى قُطْعهِ أَلواناً من العذاب ...

وواصلت القافلة سَيرَهَا ، وُسْراها ... تسيل بها الوهاد ،

وتعلو بها النجاد . فمن شمس تسلط شواظها ، وتلهب مواطئ الأقدام .
ومن زوابع تبسط أستار الرمال ، فتعشى العيون ، ومن جفاف قاحل
ماحل لا زرع فيه ولا ضرع ، ومن ليل موحش تسرى فيه زمزمة الضواري
وتتخايل أشباح العاديات .

والقافلة فوق هذا العناء كله تمضي لغير هدف مرسوم ، إلا تلك
الرؤيا الحاملة التي ألفت بين أشناتها مخيلة أجواب الآفاق الشريد ...
وما زال رهط القافلة يمضون ويمضون ، حتى تجمعت من أيام
رحلتهم أسابيع وأسابيع . وكأنما هم فوج من أسارى حرب أفلتوا من
مأسرهم ، فهاموا على وجوههم يطلبون ملاذاً وقد عزّ الملاذ !
وشحّ الزاد ، وشاع في الأجساد هزال وإعياء ، وعلت الوجوه
غبرة الشظف والحيرة وغموض المصير ...

وتبادل الرفاق صمتاً يرُدُّفه صمت . واستعاضوا عن الكلام
بالنظرات تم عن تخاذل وقنوط ...

واستبدت بقائد القافلة جهامة وعبوس ، ولم يعد يسأل جواب
الآفاق عن شيء ، فقد نضبَ معينه من قول يضيفه ...
لقد عاد القائد يفكر فيما يُنجيه من ذلك التيه ، أكثر مما يفكر
في بلوغ الغاية وإدراك المنشود .

لم تبَقْ في الركب قوة على متابعة المسير ، بل لم تبق في نفوسهم
أثارة من رجاء تشدّ من العزائم الخاوية ...
ولكن كيف السبيل إلى مآب ؟ .

أنتى للقائد ذى الندبة الغائرة أن يعود مجرراً أذيال خيبة وإخفاق ؟
بأى وجه يلقي الأمير ؟

بأى لسان يَنبسط عنده العذر ؟

أينسى قول الأمير فى يوم وداعه :

إنه لمعدّ له أنكالا وعذاباً أليماً إن هو قصّر ، وإن هو لم يبلغ ذلك

المُربّ العظيم !

أما جواب الآفاق فقد غشيه الدهول ، وألح عليه الضعف ،
وانتهى به الأمر إلى أن تملكته غيبوبة أصمّت سمعه ، وعقلت
لسانه ! ...

فظل ممدوداً فى محفة يتناوب حملها رُفقة السفر ، منهوكى
القوى ، لا يكادون يستطيعون لأجسادهم حملاً .

وَصَبَحَ يوم أقبل القائد ذو الندبة على جواب الآفاق فى محفته
بصعد نظره فيه ويصوبه ، وقد بلغ منه الغيظ كل مبلغ . وما لبث
أن أمر بإلقائه على متن الرمال تتولى رعيه !

واستأنفت القافلة سيرها ... ولكن إلى أين ؟

وكانت الصحراء تتقاضى الركب كل يوم صريعاً هالِكاً أو
مُوشِكاً أن يهلك . وكأنما لذّ لها أن تقتنص كل يوم طعامها من تلك
الأجساد التى أنضّأها السفّة ، وأضناها الكلال ...

وأخيراً حان يوم ألّفى القائد ذو الندبة الغائرة نفسه فرداً يتنفس ،
لا عون له ولا رفيق ، ليس من حوله إلا حطام من متاع ...

وهبّت عليه نكباء من ريح الصحراء ، أشاعت حوله الظلمة
والعبوس ...

وأحس أنفاسه تختنق ، والحياة تَيْبَسُ بين أوصاله ...
وتواصلت أشهر ، والأمير يرتقب عود الركب ، يمني نفسه بأوبة
قائده المظفر ، وقد اصطحب الضالة المنشودة ...
ولكن الأشهر رَدِفَتْهَا الأشهر ، دون أن تذهب عن الأمير مرارة
الانتظار والترقب .

وأخيراً دبّ اليأس إلى قلبه ، فنسى أو تناسى شأن تلك القافلة
التي أصبحت في ذمة الظنون !

٤

وفي أمسية من الأماسي المقمرة ، تحلق جمع من الناس بباب
إحدى الدور في حاضرة الجنوب ، وهم يسمرون ...
وفي أعقاب السمر تسلل بهم الحديث إلى شأن « زهرة المرقص »
فتنازعه بألوان من الخدس والتخمين ...

وكان بين الجلاس غريب يشبه في أسماله جوائى الآفاق ، تعبث
بوجهه التجاعيد ، ذو بشرة كوّحها القيظ ، تكسوها غبرة ، وعلى جوانب
وجهه يتهدل شعر غزير ...

ولم يكن يأخذ بطرف من أطراف السمر ، وإنما قنِعَ بالإصغاء مطأطئ الرأس ، كأنما تسرى فيه إغفاءة . فما إن عرض حديث « زهرة المرقص » وخاض فيه السمار ، حتى جعل يرفع رأسه ، وينفض الغفوة عن جفنيه ، ويقلب في وجوه المتحدثين نظرات كليلة عشواء ...
ثم همهم في صوت راعش :

أعَنَ تلك الراقصة الحسناء تتحدثون ؟ ... أكبر ظنى أنها هي تلك الفتاة التي لحقتها في بعض أسفارى القاصية ... إنها في مثابة لاتصل إليها قدم بشر ... إنها بعيدة عنا بُعد ذلك النجم السيّار ... وأشار بيده إلى السماء !

فما عثم الجمع أن أطبقوا عليه يحاصرونه بأسلحتهم في إلحاح ، فلاذ الرجل بصمته ، وعيناه الكليلتان تدوران في حيرة وخبال . وسرعان ما شاع في المدينة نبأ ذلك الغريب الذى يعرف سر « زهرة المرقص » فلم يلبث الرجل أن أحس بنفسه محمولا إلى قصر مُنيف ، واحتواه بهو فسيح الأرجاء تتراءى فيه العمدة ، مزدانة بالرسوم والنقوش ... والأستار المخملية تكسو النوافذ والأبواب ، وذلك العرش المتألق تحف به الأحراس والأتباع ...

وتدأى منه رجل بادن متكئ فى حلة حربية ناصعة ، وهو يتلاعب بسوطه ، وصاح به :

لقد سمعك الناس تتحدث عن « زهرة المرقص » ... فهلا أوضحتَ للأمير حاكم الجنوب المحفوظ بعناية ربّ الأرباب حقيقة

ما تعلم ؟

فجعل الرجل يطوف ببصره حوله ، يحاول أن يكشف عن مخبئته
ما ران عليها من ذهلة وشروء .

وشاعت على شفثيه ابتسامة حيرى ، وهمّ أن ينطق ، فلم يملك .
وطال صمته ... وأحس لسعة السوط من يد ذلك البدن ،
وهو يقول له :

ألم تع ما أقول ؟

فجمع الغريب ، متلعماً :
رُحْمَاك !

— لارحمة قبل أن تُنفضى بما عندك ...

فرفع الغريب عينه ، يبعث منها نظرة زائغة ، وقال :

لقد قلت لكم إنها بعيدة المنال ... بعيدة كنجم السماء ،
ما أنتم ببالغيه ...

وهوى السوط على ظهره ، فصاح الغريب يتضرع ، وقال الأمير
فى صوته الركين :

أدركوه بجُرعة من شراب ...

وصافح هذا الصوت سمع الشيخ الداهل ، فأرهف له أذنيه ،
وخيل إليه أنه صوت ينفذ من بعيد ، مخترقاً طيات الأحقاب .
فأخذ يستنقذ ما بقى من ذاكرته تحت أنقاض الأحداث ...
وحىء له بقدرح مُترع بالشراب المنعش ، فاشتفه اشتفافاً ...

وجعل يعبث بشعره المسترخى على جوانب وجهه ، وما هى إلا أن
استبان في جبينه ندبة هى أثر جرح غائر ...

وانتفض الأمير ، متنجياً عن عرشه ، وأقبل على الرجل يتفحص
سماته تفحص مثبت .

ثم لم يملك أن صاح :
أهذا أنت ؟

وانتبه الغريب ، واتسعت حدقتا عينيه ، وجعل يرنو إلى الأمير
كأنه يميّط الغبار عن صفحات طال بها العهد ...

ثم صاح فجأة :
مولاي !

وخر ساجداً .

وحمل القائد ذو الندبة الغائرة وهو مغشي عليه إلى إحدى حجرات
القصر ، محوطاً بألوان الرعاية والاهتمام .

ومضت أيام والرجل طريح الفراش ، صريع الحمى .
وكان الأمير يعود في الحين بعد الحين ، فيلازم مرقد ساعه
يصغى فيها إلى هذيانه ، وهو يقول :

« إنها في واحة « رع » ... واحتة العليا ، حيث الخصرة السندسية ،
ينساب فيها الماء من « لجين » ، ويظللها التخيّل الباسق بسعفه الفينان ...
يا لهذا الناي الساحر يصنّف فيه ربّ الأرباب ، فتتخطر على
إيقاعه تلك الفاتنة الحسناء ... »

وامتدت الحمى بالقائد ذى الندبة ، حتى أفضت به الوعك
إلى فقدان الحراك ...

ويوماً ذهب الحمى عن الرجل بغته ، وعاجله صحو وهاج ،
فأشرق وجهه ، وسطعت عيناه ...

وسرعان ما طار النبأ إلى سمع الأمير ، فقدم من فوره ، وأقبل
على القائد ، مستبشراً بطلق الحياء ، وتبوأ مقعده عن كئيب منه ،
فرنا إليه القائد فى ضجعته ، وقد ضاءت على فمه ابتسامة ودیعة ...
وجيء له بقليل من شراب ، فصبّ فى فمه ، فسرت فى وجعته الأ
انتعاشة خفيفة . وبعد فترة لاطف الأمير يد القائد ، قائلاً :

اصدُقنى ... أحقاً رأيته ؟

فهمهم الرجل خافت الصوت ، رزين اللهجة ، وثید النبوات
نعم رأيته ... رأيها بعينى هاتين !

وتاه بصره فى الأفق ، كأنه يستعيد فى خياله ذلك المشهد البعيد

الذى رأى فيه « زهرة المرقص » ...

ثم استأنف يُهَيِّم :

ليست هى الآن من البشر

إنها حلم وردى ، تلوح أطيافه فى عالم المنام ...

إنها روح لطيف يسرى فى كون سماوى ...

إنها فكرة قدسية ترفّ فى ملكون ربّ الأرباب « رع » ...

إنها شعاعة لامحة تدور فى فلك الإله « آتون »

إنها عصيّة المثال عن هذا العالم الأرضي ...

إنها ... »

وما هي إلا أن عرت الرجل هزّة ، فمال رأسه ، وتراخى جفناه ،
وسكنت أوصاله ...

فابتدره الأمير مستحثًا ، في تلهف ، قائلاً له :

تكلم ... أوضح ما تقول ...

ولكن القائد كان في هذه اللحظة قد خلص بروحه من دنيا

الآباطيل والأوهام ، وأصبح في ذمة « أوزوريس » حيث الحقيقة

الخالدة !

عا
في
ويع
الع
الك
تبد
فتن

والص
س
مش
التي
الحا
عليه

إحسان لله

أدّى « أبو المعاطى » فريضة الفجر في المسجد ، على مألوف عاداته في تأدية الفرائض حاضرة ، ثم غادر بلدته « كوم الزهر » القائمة في بقعة مشرفة على النيل شمال القاهرة . فما كاد يخرج من البلدة ، ويمضى في الطريق العام ، حيث الدواب تروح وتجيء ، والسيارات العامة تنتهب الأرض — حتى كان أول شعاع من أشعة الشمس يحى الكون تحية الصباح . وكان النسيم رطباً مشبعاً بأنداء الفجر ، والحياة تبدأ انتعاشها البهيج ، والضوء في بواكيره يختلج على صفحة النيل ، فتناجيه العصفير وهي تبرح أعشاشها تلتمس الرزق ناشطة .

بيد أن ذلك الجمال الرائق الذى يبعث في النفس الراحة والطمأنينة ، لم يظهر له أثر على وجه « أبى المعاطى » فقد وضع على سباه طابع الهم والكآبة ، فهو يسير لا تعنيه سقسقة العصفير ، ولا مشى الدواب ، ولا جرجرة العربات . وإنما يفكر في شأنه وشأن المهمة التى كلفه أبوه أن يقضيها له في القاهرة : عليه أن يقابل كاتب الحامى ، وأن يدفع إليه بعض الأوراق التى تخص قضية الأرض المتنازع عليها بينه وبين أقاربه . كلفه ذلك أبوه ، وضمن عليه بركومة يمتطيها

ليصل بها إلى العاصمة ، فليس له إلا أن يقطع المرحلة سعيًا على القدمين ، ثم يرجع بعد قضاء هذه المهمة راجلاً كما ذهب . وما كان ليُعنى بهذا الأمر لو أن حياته العامة هنيئة رَغدة ، وأن له جوانب من معيشته تمنحه السرور والغبطة .

استمر « أبو المعاطي » في سيره ، وكلما فكر في شيء تداعت أمامه مناظر حياته التاعسة منذ نعومة أظفاره . إنه شاب يافع يبلغ الثامنة عشرة من العمر ، حالفه سوء الطالع منذ شهد الضوء في هذه الحياة ، فقد قضت أمّه نجبها وهي تلده ، وفي اليوم التالي شبّ حريق في الدار كاد يأتي على كل ما فيها ، وكان العام الذي قضى فيه طفولته الأولى عامَ جذب عانت الأسرة فيه أسباب العُسرة والضيّق . فتشام الأب والأهل ، بل سائر من في القرية ، بهذا الوليد الذي اقترنت بمقدّمه عوامل البؤس والأسى . ونشأ الغلام تحت سيطرة امرأة أبيه ، تغرى أباه بإبغاضه ، والتقزز منه ، والتشددّ معه . ولم يكن بالفقير الوسيم المشرق الطلعة ، الدلق اللسان ، يستجلب ببشاشته القلوب ، ويسترعى بحلاوة لفظه الأسماع ، وإنما كان صَموتاً منطوياً على نفسه ، بائن القمأة ، دميم الخِلقة ، فظل موضع امتهان أبيه وامرأته ، يكلفانه أعماله الدار ، فيؤديها صاغراً لا ينبس . وإذا جال في القرية لم يُرَ إلا منفرداً ليس له من صاحب ولا من خَدِين . فإن صادفه أحد العابثين فحاول مناوشته بسخرية لاذعة أو سباب جارح ، تصام عنه ، وأولاه إهمالا وعدم اكتراث ، وهو يحيش في وجدانه

شعور الترفع والازدراء !

ولما بلغ مبلغ الفتوة انتهى إليه عيبُ الحقل كله ، فنهض به صابراً حمولاً لا يلقى من ذويه على موفور جهده جزاء ولا شكورا . وما كان له إلا أن يُدْعَنَ ويستسلم لما أريدَ عليه ، وكيف يستطيع أن يرفع بصره إلى أبيه متحدياً إياه ، وهو يراه على الرغم من علوسه جبار العزمة ، مهيب الكلمة . وهل ينسى مرة أنه عمل على أن يدخر مبلغاً من النقود في مدى من الزمن مديد ، يتغنى أن يشتري به بعض ما تطمح إليه نفسه في الأسواق ، فتمنى إلى أبيه هذا الصنيع ، فاستدعاه إليه ، وطلب منه على الفور أن يخرج له ما عنده من المال ، فهمّ الغلام أن يثور ، وأن يأبى الاستجابة لهذا الأمر ، فهوئى أبوه على صُدْغِه بكف جبارة أخذت الثورة في مستهلها . وسرعان ما امتدت يد الغلام إلى أبيه ، لا ليزود عن نفسه ، بل ليعطى أباه ما جمع من المال والآمال ... وترك الغلام والده مطأطئ الرأس ، يحجر قدميه ، وقد تحيرت في مآقيه الدموع . وفزع إلى المسجد ، حيث أوى إلى ركن فيه ، فأسلم رأسه إلى ركبتيه ، واندفع ينشيج ويذرف العبرات . وأنبهته سعدة عريضة ، فقال ببصره يتفقد من قدم المسجد ، فرأى الإمام في طريقه إلى المحراب ، يتعثر في خطواته المهلدة . فنهض إليه يقبل يمناه ، وكان يلقى أبداً في رحابه أمناً ورفقاً لا يأنسهما من سائر الناس ، فسأله الإمام : ما خطبه ؟ فأخذ يسرد له ما وقع من أبيه ، فربت الإمام ظهره ، وطيب خاطره قائلاً :

أباك ! أباك ! ... أنت ومالك لأبيك ... كن طيعاً صبوراً
تغنم ثواب الله ...

ثم تحسس جيبه ، ومد يده إلى « أبي المعاطي » وهو يقول :
قد تجد يا بنيّ في هذا المبلغ على ضآلته بعض ما يعوضك
بما فقدت ... وليكن قرضاً

فردّ يد الشيخ في أدب وتمنع ، وشكر له جميله ، وانصرف من المسجد
أهدأ بالاً ...

جدّ « أبو المعاطي » في طريقه ، تتوارد هذه الذكريات على
خاطره ، وبدأ يشعر بأشعة الشمس تلفّح وجهه ، والعرق يتصبب من
جبينه . وصادف في سيره قرية قام فيها سوق الأسبوع ، فجاز
بها ينظر ما يُعرض فيها من ألوان السلع ، واختلب نظره فوق كل شيء
منظر الطعام ، فقد رُصّت بعض الصواني عليها أشات المأكول من
أرز مطرز بأحلاط شبيهة جذابة ، ومشويات يفوح قُتارها فيفغّم الأنف
بأزكى الرائحة . فرجعت به الذاكرة إلى أيام صباه الباكّة ، حينما
شهد وليمة أعدّها العمدة احتفالاً بزواج حفيده ، فذاق مثل هذه
الألوان ، وما فقى منذ ذلك اليوم يجد طيبها في فمه ... وأبطأت
خطاه في جوانب السوق ، إذ كان يتمتع البصر بهذه المرائي التي فتنت
لبّه ، ويستنشق عير تلك المطاعم التي تحلّب لها ريقه . ثم انساق
بقدميه ليبعد عن هذه الناحية ، ولم يلبث أن أحس بجوعه ، فتلمس
جيبه ليستخرج الليفة التي أعدتها له امرأة أبيه تحوى كسرًا من الخبز

اليابس ، وقطعة من الجبن القريس . وهم بأن يُسكت جَوَعَتَه بقضمة ، ولكنه تذكر أن هذا زاده كله في رحلته الطويلة ، فعليه أن يحسن تدبيره حتى لا ينفد قبل انتهاء مهمته وأَوْبَتَه .

واسترعى نظره ضريحٌ شاخص على الطريق ، لأحد أولياء الله . فدد الخطأ إليه ، وما إن داناه حتى أمسك بشباكته ، وقرأ له الفاتحة ، ثم أخذ يتضرع ويتهل ، ويمسح وجهه بيديه مرات ... وكان بجوار الضريح سائل مكفوف البصر يتلو بعض آى الذكر الحكيم ، وإذا برجل ممتط ركوبة مطهمة ، تدل سماته على اليسار والنعمة ، فأخرج كيسه المنسوج ، وأخذ منه قطعة من النقود دسها في يد القارئ ، ولم ينتبه إلى أن قطعة أخرى سقطت من الكيس ، ولكن «أبا المعاطى» لمحها على الأرض فأسرع إليها ، وأخذ يقلبها بين أنامله فترة ، وكان القارئ قد عاد يرفع صوته بآى الذكر الحكيم ، فألقى «أبو المعاطى» نفسه يرفع عينيه إلى الضريح هنيئة ، ثم عدا في طريق الرجل المحسن الماضى على مطبته ، فصاح به حتى استوقفه ، وناولته قطعة النقود التى سقطت منه ...

واستأنف «أبو المعاطى» سيره يغادر السوق ، وقد اشتدت وطأة الشمس عليه ، وأحس بالهمّ ينمو في نفسه ، والمتاعب تتجمع على كتفيه ، وعادته ذكرى قطعة النقود التى ردها إلى صاحبها ، وتراءت لعينه صوانى الرز والشواء ، فتضاربت بين جوانحه مشاعر الأسف والحيرة والقلق ... وانحنى ناحية على الجسر ، ووجد ألا بدّ من أن يخرج

زاده من جيبه ، وأن يتناول منه مضغعة تردّ عنه السغب . وبينما هو جالس يأكل ، سمع حرير كلب على مقربة منه ، فحول إليه بصره ، فوجده يرقبه عن كذب في خوف وحذر . وجعل الكلب يرسل إليه نظرات توسل واستجداء ، وهو يلوك لسانه بين فكّيه ، فحدّجه « أبو المعاطى » بنظرات نكراء ، وما عثم أن تناول حجراً قذفه به ، فانطلق الكلب يعوى في ذلة المقهور ، وأقبل « أبو المعاطى » على طعامه يغمغم بالسباب !

ثم نهض يتابع سيره ، وقد بدأت الطريق تتشعب ، فانطلق يسأل هذا وذاك :

أين السبيل إلى القاهرة ؟

ودخل المدينة دخول الحائر الوَجِل ، وقد بدأ صخب الحياة يكتنفه ، ففطّق يستدلّ على مقرّ كاتب المحامى فى حىّ « السيدة زينب » ... وشارف المسجد بعد جهد ومشقة ، وقد أخذ منه الإعياء كل مأخذ ، فأراد أن يريح جسمه بجلسة ، وأن يصلى ركعتين بجانب المقام . وبعد أن أدى فى المسجد الصلاة ، تعلق بأستار الضريح ينفض نفسه فى مناجاة وضراعة ، ثم عدل إلى الباب ، فرأى أناساً متفرقين يجلسون ، فاختر مكاناً ظليلاً رطباً جلس فيه ، وقد اعتزم أن يذهب إلى كاتب المحامى بعد أن يستوفى قسطه من الراحة والتفرّج . واستند إلى الجدار ، فغفا غفوة لم يدّر مداها ، وعند ما استفاق من نعسته وجد الحركة تشمل المسجد ، والأرجل تكثر غادية رائحة . وبينما هو فى

جلسته ، مسترسل في تفكيره ، إذ أحس شخصاً يقترب منه ، وشيئاً
يُلقي في حجره ، فرفع جفنيه ، وتطلع إلى ذلك الشيء ، فإذا به قطعة
مغرية من النقود ، فأمسك بها يقلبها ، وهو ينظر إلى الذي ألقاها ،
فهم أن يعيدها إليه ، ويخبره بأنه ليس بشحاذ ، ولم يكذب يفعل حتى
كان الرجل قد غاب في زحمة السابلة ، فجعل يتفقد برهه دون أن
يجده . ولحق في فكره على الأثر مناظر الصواني عليها الرز المطرز
والمشويات الشمية . أليس هذا رزقاً ساقه الله إليه ؟ أو ليس هو
بركة « السيدة زينب » وساحتها الكريمة ؟ وتلفت يمنية ويسرة ، فلم
يجد أحداً يُعيره التفاتة ، فأسرع بقطعة النقود يحفظها في جيبه ،
ورغب في القيام ، ولكن هاجساً هجس في خاطره أن استرح قليلاً ،
ففي الوقت مندوحة ، وليس مقرّ كاتب المحامي ببيعده . وفيما كان
يسبح في أخيلة شتى ، وجد امرأة في مُنصرفه من المسجد ، أنيق
البزة ، وجهه الطلعة ، تحفّ به شمائل الطيبة . فتصدى له سائل
كسيح يطلع على عكازته ، ومدّ له يمينه مستعطفاً ، فنفضه الوجهه
بقطعة من النقود ألهمت لسانه بالشكر والدعاء . فأحس « أبو المعاطي »
على الفور بيده تمتد ، وكفه تنبسط ، فوقع بصر الوجهه عليه ، فأخرج
قطعة من النقود ، وألقى بها إليه ، فاختلج قلبه وأسبل أهدابه متناوياً . وبعد
هنيهة استخفى شبح ذلك الوجهه ، فجعل « أبو المعاطي » يضمّ قطعة النقود
إلى أختها الأولى ، ثم انسرح يفكر : ماذا يأكل ؟ وأى الألوان يختار ؟
وتباينت تصوّراته في شهوات الغذاء !

ووجد نفسه يطيل الجلوس ، فهتف به هاتف : ألم يحين الوقت لأن يهب إلى كاتب المحامى لينجز المهمة التى أقدم من أجلها ؟ ولكن يده كانت على حالها مبسوطة الكف ، وعينه كانتا مطبقتى الأجفان . وسمع اثنين يتحدثان على مقربة منه ، فيقولان :

حقاً إنه لسائل جدير بالإحسان !

وهبطت على يده فى الحال قطعة النقود ، فخطرت ببال « أبى المعاطى » صورة القارئ القاعد بجوار الضريح ، وهو فى جلسة الذلة والمهانة . فتحركت فى قلبه أشياء من الأنفة والعزة ، وتهياً ليفارق مكانه ، فإذا امرأة عجوز تتوكأ على عصا تدنو منه ، وتضع فى يده على استحياء وصمت قطعة من النقود لها قيمتها ، وتمس فى أذنه ملحّة أن يسأل لها الله شفاء ابنتها التى أضنتها العلة ، فلم يتحرك فى مجلسه ، ولم يفتح عينيه لها ، واجتهد أن يقلص من قسماّت وجهه ، تعبيراً عن معنى الابتهال إلى الله ، وهو يهمهم بكلمات مضطربة لم يستبين منها حرف ، وعادت العجوز أدراجها ، وهى تقول :

الدعوة من خدام المقام هؤلاء ، ليس بينها وبين السماء حجاب ! ... وامتدت جلسة « أبى المعاطى » وعمر جيبه بقطع النقود ، فما كاد الظلام يُرخى سدوله ، حتى فترت الحركة ، وانقطع سيل الزوار ، فنهض يلمّ شعته ، ويستقبل الطريق يتحسس النقود ويعدها مرة بعد مرة ، وقد أدار فى ذهنه أن هذا المبلغ من المال يعدل كسب أيام معدودات فى الريف ، عاملاً فيها على أديم الحقل فى وقدة القيظ ،

مقاسياً ضروب المشقة والكد ، وها هو ذا قد يسره الله له وهو في جلسته الهادئة الوداعة . أوليس هذا برهان رضا أسبغه الله عليه ؟ أو ليست هذه رحمة ربانية تستوجب مزيداً من الحمد والشكران ؟ ورفع بصره إلى السماء ، مبتهلاً إلى وليّ النعم أن يديمَ عليه مَنَّته .. ثم مسح وجهه بيديه كليهما !

وانساب يتصفّح الحوانيت متشتمّاً يبحث عن طعام ، ومثل أمام وجهه الزجاج على باب أحد المطاعم ، وقد فتنته من ورائها مناظرُ الشواء تتطاير رائحته شهية مغرية . فأعاد راحته إلى جيبه يتلمس النقود ، واشتبكت في رأسه أسراب الأمانى : لم لا تكون هذه الصرة نواة ثروة يشتري بها ثوباً أنيقاً يجمّله ، وقلنسوة تزهو على جيبه ؟ ألا يمسك رَمقه ببقايا الزاد في الليفة التي أعدت له ، ويحتفظ بما جمع ؟ وهنا ازدحمت على خياشيمه روائح الشَّواء ، فما هو إلا أن اندفع نحو المطعم ، وملاً بطنه بما لَد وطاب حتى اكتفى ، ثم خرج يتجشأ نشواناً ، وسار بخطوات أثقلتها التخمّة ، وقد أحسّ الرغبة الملحة في أن ينام ...

وما كاد ينعطف في أحد الأزقة المجاورة ، حتى ألقي زاوية مهجورة بجوار خربة قد تمدد فيها أحد الصبية المشردين ، فانتحى مكاناً غير بعيد منه ، فهده لرقاده ، متوسداً ذراعه ، ولم ينس قبل أن يُسلم للكرى مقلتيه أن يخرج نقوده ويعدها ، فرأى أنه لم يبق منها إلا قاول ، فقد مضى الأكثر الأغلب فيما حشا به بطنه من ألوان العشاء . فلبث

يتأمل البقية الباقية ، ثم أحكم رَبطها ، ووضعها في قرارة جيبه ،
وهام في أحلامه ، معترماً أن يقضى مهمته مع كاتب المحامى من غده ،
ويروح القاهرة إلى بلدته ، مكثفاً بما راج له من عطية الله ... !
ولما أهلت تباشير الصباح ، انبعث من مرقده ، فكان أول ما سنع
لخاطره أن يتحسس ربطة نقوده ، فاطمأن إلى سلامتها ، وبني عزمه
على أن يكون في يومه قنوعاً . فعرج على لفيفة الزاد التى جلبها من
البلدة معه ، ففك وثاقها ، وبسط رُفعتها أمامه ، وجعل يرنو إليها
برهة ... ومر برأس الزقاق بائع جوال ، يحمل صينية فطير ، وهو
يصيح متغنياً بما ضمت من حلو لذيذ . فدّ « أبو المعاطى » يده
إلى زاده ليتناول أول لقمة يتبلغ بها ، فإذا بيده ترتد إلى قرارة جيبه ،
وتستخرج ربطة النقود . وسرعان ما استوقف بائع الفطير ، فابتاع منه
واحدة ، والتهمها على الأثر .. وما كاد البائع يضع الصينية فوق رأسه ،
ويستأنف سيره ، منشداً مقطوعته في الإشادة بالفطير الحلو اللذيذ ،
حتى وثب إليه « أبو المعاطى » يبتاع فطيرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة ..
وألقى نظرة على ربطة النقود ، وقد خوت مما حوت : ماله والنقود
يتحسّر على ما أضاع منها ؟ لقد تناول فطوره ، بحمد الله ومنه ،
وهو قاصدٌ مقررٌ كاتب المحامى يقضى مهمته في لحظات ، ثم يثوب
إلى بلده راضياً ...

وسارَ مُجدّاً يدفع بمنكبيه الهواء ، فما إن قطع الزقاق ، ومال
إلى الطريق العام ، ووجد نفسه في متّجه المسجد ، حتى شعر بخطاه

تتد : أيليق أن يقرع أبواب البيوت في ذلك الوقت الباكر ؟ وهل يجوز أن يذهب إلى كاتب المحامي قبل أن يؤدي فريضة الصبح ؟ إلى المصلى إذن ... ومضى إلى المسجد حتى بلغ بابه ، فوقف يتأمل رُواده بين ذهاب وأوبة . واسترعى انتباهه أنه وجد حواشى الباب وقد عَشَشَ في كل ناحية منها سائل مستقرّ في وكره ، كأنه مقامه الموروث ... وثنى طرفه إلى الركن الذى كان يستريح فيه أمس حين قدومه القاهرة ، فرآه خالياً ... ها هى ذى الشمس قد سطع شعاعها منذ برهة ، ولم يعد لوقت الصلاة مُتسع ، فسواء عليه أن يصلى الصبح الآن أو بعد فترة . لاجتماع عليه إذن فى أن يستمتع وقتاً بنسيم الصباح البهيج فى ذلك الركن الظليل . فأفضى إليه ، واحتله فى طمأنينة وسكون ، ومرت فترة لم يتحرك فى جلسته ، وقد أسبل جفنيه إلا قليلاً ، وتظاهر بالنعاس ، فسرت إلى أذنه همسات مبهمة ، فألقى إليها سمعه وباله ، وأدار حوله النظر خلسة ، فاستبان له أن السائلين يتهامسون فى شأنه ، ويتغامزون به ، فأغضى ، ولم يُبد لهم أنه فطن لشيء .

وشرع رُواد المسجد يتوافدون على أبوابه ، وأخذت قطع النقود تهافت على يد « أبى المعاطى » فكان يتلقطها ويدسها فى جيبه عَجولاً ... ولاحظ أن من يمر به من المتصدّقين يقف برهة يتفرّس فيه ، ويتألم لما يبدو على وجهه من علائم البؤس والمسكنة ... فأدرك أنه قد أوفى ملامح معبرة تستدرّ الإشفاق . وما كاد يفظن إلى ذلك حتى ازدادت تلك الملامح من وضوح ، وصحبتّها أنات وترنيمات تجتذب الأنظار.

وطالت الجلسة ، وتوافر المدد ، ورف على ذاكرة « أبو المعاطى » شأنه مع كاتب المحامى ، ووعدّه أباه أن يعود إلى البلدة فى يومه ، فاهتر فى جلسته ضجراً .. ليس بالأمر المنكر أن يبق بالقاهرة يوماً على أن يعود لا محالة غدا ، أليس له بعد أن أمضى فى العمل المتواصل دهرًا طويلاً يكُدّ ويجهد نفسه لمصلحة أبيه أن ينال حظه من المتعة يوماً ؟ ! لقد اعتصر دمه فى سبيل منفعة الأسرة والقيام على مرافقتها ، أفما آن له أن يستجم قليلاً بعد طول الكد وفرط العناء ؟ وفوق ذلك لن تكون النقود التى جمعها من حقه وحده ، بل إنه سيُسْرك فيها أباه . وهل يبلغ به الجحود أن ينسى نصيب أبيه مهما يكن من أمره معه ؟ أخلد « أبو المعاطى » إلى هذه الفكرة ، واستقرّ فى جلسته ، يستنشق النسيم العليل فى الركن الظليل ... !

وانطوى اليوم ، و « أبو المعاطى » فى مكانه بجوار المسجد تهيّط عليه الحسنات ، فما هو إلا أن يأخذها حسنة بعد حسنة ، ويودعها قرارة جيبه ، وهو هائم ينتقل بين التصورات والأمانى ... وظل كذلك لا يستطيع برّاحاً ، وحين أحسّ بالجوع فى بعض النهار ، تبلغ بشيء مما يطوف به باعة السوق . وما كان له أن يبارح مكانه والناس بين مقبل على المسجد ومنصرف عنه ... فلما آذنت الشمس بالمغيب ، أبصر بالسائلين المرابطين حول المسجد ينفرط عقدهم سائلاً فى إثر سائل ، هذا يجرّ عكازته ليتحامل عليها ويطلع ، وذاك يحمل غيرآرته على كتفه ، وذلك يستدعى غلامه ليقوده . فقام « أبو المعاطى » يتمطى

وهو يروض على السير أوصاله التي خدّرها طول القعود ...
وتغلغل في الطريق ، واخترق بعض الدروب ، فوافق سائلا
من كانوا معه بباب المسجد يميّط اللفائف التي شدّ بها يده إلى عنقه ،
ويتزّرع الضمادة التي أدارها على عينيه ، ثم يفتل مستقيم العود ، صحيح
الجسد ، يشق حجاب الظلام بعينين تلتمعان ... وَنَفَدَ « أبو المعاطي »
من الدّرب إلى الشارع ، وانتهت به قدماه إلى مطعم ممتاز ، فلأبطنه
مما اشتهى ، وقضى ليلته حيث قضى البارحة يهنأ بأعذب الأحلام ...
وفي رونق الصبح ، راع جماعة السائلين حيال باب المسجد أن
« أبا المعاطي » قد شدّ يسراه بلفائف إلى عنقه ، وتوكأ على عكازة
غليظة ، وهو يدزّج في جهد وإعياء ... ثم انتهى إلى مكانه المختار
فاحتله كسابق يومه ، وما كاد يستقر في مجلسه ، حتى تعالى الحسيس
حواليه ، وتزاحمت الهمهمة ، فتلفت في خلسة فأبصر برفاقه يسدّون
إليه النظر وهم يتغامزون . ولم يطل به المقام حتى أخذت عينه قادماً
من السائلين لم يره من قبل ، وهو شيخ منتفخ الجثة ، متروهل الأكتاف ،
ذو لحية شمطاء ، يضع على رأسه عمامة خضراء ، ويرتدى جبة
تكاثرت فيها الرّقاع مختلفة الألوان ، وتبدل على صدره سُبحة طويلة ذات
حبات غلاظ . وجعل الشيخ يتهادى نحو « أبي المعاطي » فكلما دنا منه
لمعت على وجهه سماء الدهشة والحنق . وما إن حاذاه حتى أخذ يصوبُ
فيه النظر ويصعّده ، واشتدت همهمة الرفاق ، وتقاربوا نحو القادم الشيخ ،
يحويونه تحية احترام وتلطف . وسمع « أبو المعاطي » ذلك الشيخ يسأله :

ما أتى بك إلى هنا ؟

فأجابه :

أتيت أستريح بجوار بيت الله ، وضريح السيدة الطاهرة ...

— هذا مكاني ... فكيف ساغ لك أن تقتحمه ؟

— الساحة فسيحة لمن يريد الجلوس ...

— قلت لك هذا مكاني ، فعليك أن تنتحي عنه !

فنظر إليه « أبو المعاطي » نظرة متفرّس ، وقال في شيء

من الازدراء :

ومن أنت حتى تطلب إلىّ أن أنتحي لك عن مكان أجلس فيه ؟ !

— قلت لك هذا مكاني ، وقد اتخذته لي مثابة منذ خمسة أعوام ،

إذ ورثته عن عمي ، فكيف ساغ لك أن تنتهز فرصة تغيب لي تحتاه

دونى ؟ ... وكان عليك قبل أن تنضم إلى الرفاق أن تستأذنى ...

— أو حسبتني مستجدياً مثلكم ؟ إنما أطلب الراحة والتبرك بمجاورة

الضريح المطهر ...

— خلّ عنك هذا الهراء ... لم يسبق لأحد أن يأخذ في هذه

الساحة مكاناً إلا إذا أجزّته ، وعينت له مجلسه لا يعدوه ...

فلم يُبد « أبو المعاطي » حراكاً ، بل لبث يقلب فيه البصر ،

فشعر بقدم الشيخ ترّكله ، وهو يقول :

قلت لك تنحّ ، وإلا فالعاقبة وبالٌ عليك !

وفي هذه اللحظة برز من المسجد رجل ، فرمى بقطعة من النقود في

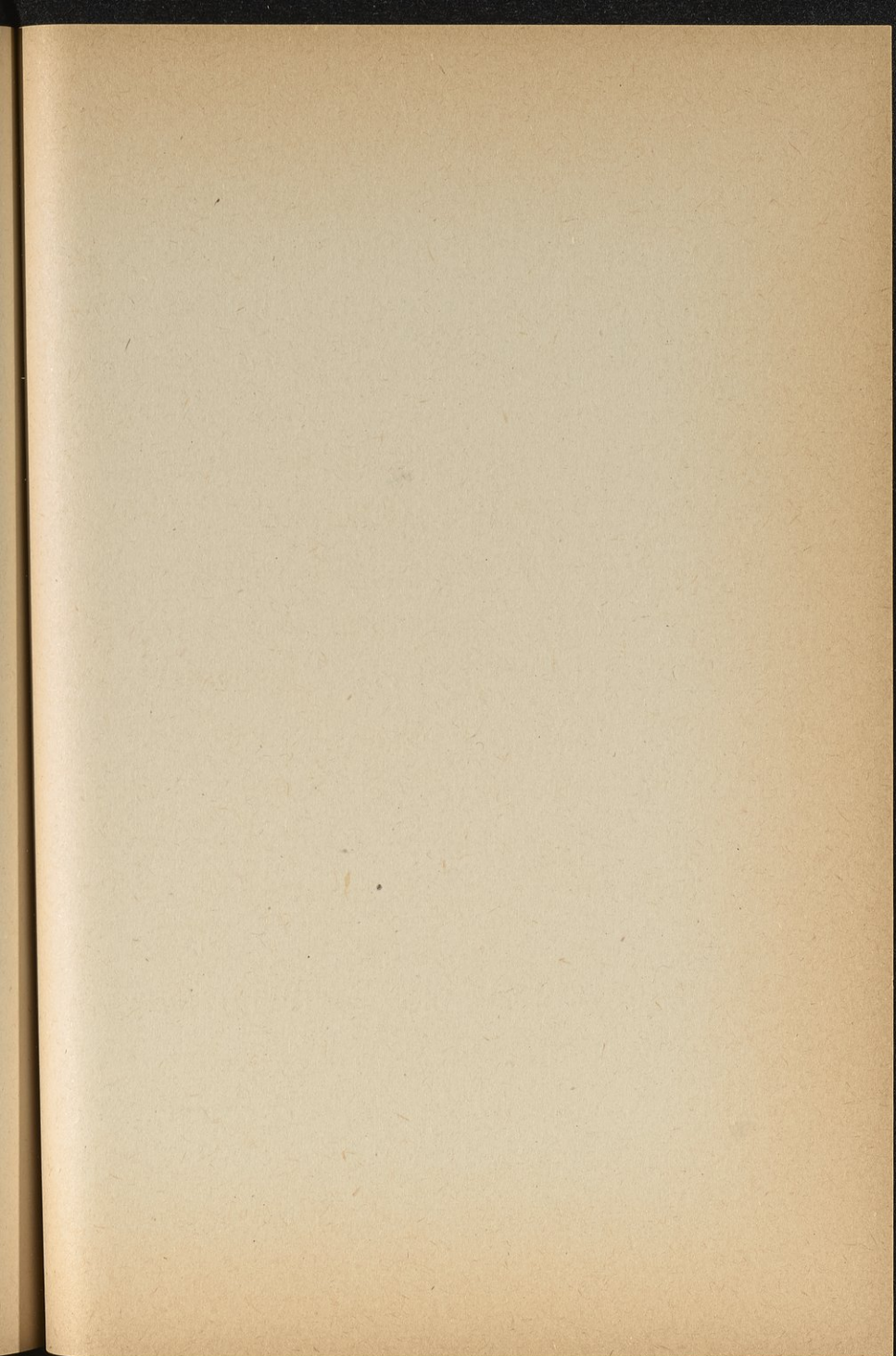
حِجْر « أبى المعاطى » ومضى لطِيبته ، فما كان من الشيخ إلا أن انقضَّ
على القطعة انقضاض الصقر ، ولم يشعر « أبو المعاطى » إلا وهو يثب
على الشيخ ، ويشدُّ على يده ، وينترع قطعة النقود . وفى لمح البرق
ألقي نفسه مشتبكاً معه فى عراك عنيف ، واستمر الصدام وقتاً وهما
يتوثبان ويتغالبان ، والرفاق حلقة حولهما يتفرجون . وما زال « أبو المعاطى »
يستشعر يقظة السطوة تسرى فى أعضائه ، ونارَ الحمية تتلظى فى قلبه ،
وقد استحال كله أعصاباً نافرة نائرة ، حتى وجد نفسه قد أخذ بخناق الشيخ
وهو جاثم على صدره ، يكيل له الضربات بجُمُوع يديه . فتخاذل الشيخ ،
وَدَنَّت عنه صيحات الاستغاثة والاستنجاد ، فنظر « أبو المعاطى »
وهو أخذ برقبة الشيخ إلى الرفاق حوله بعين متمرة ، ووجه ينمُّ عن
الافتراس والحيرة . فتصاغر الرفاق ، وتداخلتهم الحشية ، ولم يجرؤ
أحد منهم على أن ينتصر للشيخ العميد . فلمح « أبو المعاطى » فى هَيْئَتِهِم
معنى التهيب له ، والرهبه منه ، فارتدَّ إلى فريسته يقرب فيها النظر ،
فاطمأن إلى أن الشيخ لم يعد بقادر على أن ينارله ، فتركه ملقى على
الأرض ، وعاد إلى مكانه ، وجلس فيه جلسة التأمر والتنفخ . وهو
يسوى من ثيابه ، ويمسح التراب عن وجهه . وبعد قليل نهض الشيخ
كسير الخاطر ، مستكين النفس ، وانتبذ ناحية قصية يأمن فيها جانب
ذلك الشيطان العنيد ... وتنفس « أبو المعاطى » تنفس الارتياح ،
وتلمس هِرَاوَتَهُ ، ففرع بها الأرض فى نشوة ، وقد بَرَقَتْ على فمه ابتسامة
خبثية ، وأخذ يرمق جمع الرفاق بعين ملؤها السيطرة والاستطالة .

وتفرق الجمع في سكون ، كل يسعى إلى ركنه المختار ...
وعجب « أبو المعاطي » من نفسه : كيف استطاع أن يُذلّ هذا
الطاغية ، وأن يقهر ذلك البنيان الشامخ ، وأن يجعل رأسه في مواطئ
الأقدام ؟ ولكنه تذكر أطراف حوادث وقعت له في الحقل ، فرة
كبح جماح ثور أفلت من محراثه ، ومرة أدار ساقية ثقيلة بقوة عضديه ..
واتسعت ابتسامته ، حتى أضاءت جوانب محيّا ، ولم يطل به المقام
حتى أحس قدمين تديبان عن كتب منه ، فطأ رأسه ، وقلص قسما
وجهه كالضارع المتألم ، وتمتم بالفاظ حبيسة ، فسقطت قطعة النقود
في كفه ، فأودعها من فوره جيبه ، واستأنف تمتته آمنا ...
وفي غداة اليوم التالي ، هبّ « أبو المعاطي » من نومه مبكرا ،
وعَجِلَ إلى مكانه من المسجد ، فما إن أشرف عليه من بعيد حتى
لاحظ له العمامة الخضراء تحتل موضعه المكين ، فاندفع مهرولا وقد
شدّ على هراوته ، وإذ قارب المكان وجد شيخ أمس متمكنا في جلسته ،
تحيط به شرذمة من أتباعه ، فاتجه « أبو المعاطي » إليه صامتا ،
وما شعر إلا أن امتدت يده في قساوة وغلظة تأخذ بتلابيب الشيخ ،
وتقصيه عن مكانه . ولكنه لم يكذب ، حتى رأى الأتباع يتألبون
عليه ، ويتقسمونه ضرباً وحيعاً ، ولكمّ شديدا ، فأحس ثقل الوطأة
عليه ، وتوقع الهزيمة توشك أن تحلّ به ، ولعت في مخيلته حسنات
النقود وهي تنهمر على حجره ، وتمثلت لخياشيمه روائح الشواء يطعمه
شهيّا ، فإذا الهراوة تستيقظ في يده غضبيّا . وفي خطفة البرق راح

يخبط بها في الجمع خبطَ عشواء ، مشمراً في متابعة الضرب ذات
اليمن وذات الشمال ، فما هو إلا أن تقوَّض الجمع عنه ، وولَّوا فراراً
منه ، غير مصيخين إلى نداء الشيخ واستغاثته . وتقدم قَزَم من الأتباع
الذين لم يكن لهم في المعركة نصيب ، فتقرَّب من « أبي المعاطي »
وتشبَّث بشيابه ، وهو يصيح :

فليحمك الله ... ليس للأمر إلا أنت ! ...

وهنا تعالت صيحات تؤيد قول القزَم ، وأبصر « أبو المعاطي » الصائحين
يتدأون منه ، ويتلطَّفون به ، وينفضون الغبار عن جلبابه . فعاد « أبو المعاطي »
يتخطَّر في خطوات وثيدة إلى مكانه المعهود ، واقتعده مزهواً منتفخ
الصدر ... فأما ذو العمامة الخضراء ، فقد كان يرتدُّ إلى الناحية القصية
التي لاذ بها أمس ، وارتجى فيها متكوراً ينكمش بعضه في بعض ! ...
وفي اليوم التالي ، تجلَّى « أبو المعاطي » قبالة المسجد وهو يضع
على رأسه العمامة الخضراء الضخمة ، ويرتدى الحبة المتكاثرة الرقاع ،
المختلفة الألوان . وعلى صدره السُّبُحَةُ ذاتُ الحبات المائة الغلاظ ،
وقد التف حوله الأتباع يحيمونه تحية التودِّد والإكبار ... ثم جعل يتهادى
في مشيته ، حتى وصل إلى مقعده الظليل ، فاطمأن فيه ...
وطاف برأس « الشيخ أبي المعاطي » طيفُ والده ، وهو يسائله عما
فعل ، وعما ادخر من النقود ، فشرع بالهراوة تتحرك بين أنامله ، فدقَّ بها
الأرض بضع دقات ، وقد كشَّر عن أنيابه ، وانبعثت من حلقه
قهقهة شيطانية ساخرة ! ...



زَوْجٌ وَضَرَّتَانِ

كان «عثمان أفندى» رجلاً وثيق الأركان ، أميلَ إلى البدانة ،
محتقن الوجه من أثر الشراب ، ولكنه حسن الصورة ، أنيق البزّة ،
ذو شارب مسنون . وعمل الرغم من أنه ذَرَفَ على الستين ، فقد سلمت
أساريه من عبث السنين ، إلا ما تلمحه من تلك الرّعشة التي تنتظم
يده حين يمدّها إلى الكأس ، أو يشير بها للتحية .

وقد أليفَ الناس أن يروا «عثمان أفندى» مُسلم الأوصال ، فلم
يكن يدور في أخلادهم أنه يقع يوماً في إيسار المرض . فلا غرو أن
تسرع إليهم الدهشة حين ترائى إليهم أن الرجل أصابه الفالج بغتة ،
وأنه نال منه أبلغ منال ، حتى لقد أشفى على هلاك وشيك ، وكأن
الموت مطوّف ببابه ، يهمّ بأن يطرقه ...

عجب الناس أشدّ العجب مما سمعوا ، فإنه ليقرّ في أذهانهم أن
الموت يهادن أمثال ذلك الرجل المتين المهيّب ، فكانوا إذا مرّ أحدهم
بداره ، همهم قائلاً :

الدَّوَامُ لِلَّهِ !

كان «عثمان أفندى» يقيم مع زوجته في داره التي يملكها

في حيّ «السيدة زينب» ... وقد رضيت زوجته أن تضمهما دار واحدة في طاعة ذلك السيد المهيمن . ولم يكن أحد يرتاب في أن السعادة ضاربة على الدار رؤاقتها، وأن أهلها يحيون في أمن ونعمى ، فبذلك كانت تجرى أحاديث الخلق ...

وإذا كان لكل شيء آفة ، فإن الآفة التي أصابت «عثمان أفندى» أنه لم يُرزق بالذرية ، فظل في الحياة فردا ...
وقد أنعم الله على الرجل بدخل كريم سوّغ له أن يعيش مُرفهًا طيب المأكل والمشرب ...

ومهما يكن من صلابة الرجل فيما يرى ، وعناده فيما يريد ، فقد طُبع على سخاوة الكف ، وكرم البذل ، لا يألو جهدا في تنعيم زوجته وإقرار أعينهما بما تشتهيان من متاع .

وإحدى زوجته تدعى «فتنة» قطعت في طريق الحياة نصف قرن ، واستأنفت السير لا يظهر عليها إعياء ... وهى فارعة القامة عجفاء ، قوية العضلات ، تستبين وُعورة أخلاقها فيما تبعثه عينها من نظرات نفاذة عنيفة ، وفيما يرسم على وجهها من قسَمات جَهمية قاسية ...

كانت في شبابها ذات حظ من ملاحه ، كَبَقَةً بالتخطر والتثني ، بصيرة بتصويب النظرات من جفن مكحول ، يدفعها المرح إلى فنون من التدلل المطوى على إغراء ...

فما كاد «عثمان أفندى» يتعرف إليها حتى استجابت لها نفسه ،

وهذا فؤاده ، وما هي إلا أن تم بينهما زواج ، فوهبته هي قلبها أجمع ،
وفتيت في حبه ، فنعم في صحبتها بعيش صفاء وهناء .

بيد أن الدهر كما يقولون قلب ، لا تدوم له حال ، فبعد أن
اشتف « عثمان أفندي » عصارة الحسن من « فتنة » واستمتع بما لها من
شباب غض ، كوى رأسه عنها ، حين أحس أنها تخبط عصر
الفتح والازدهار ، ولم يبق لديها ما تمنح من عطر الزهرة الفواح ،
ونضرتها البهيجة ...

مضى « عثمان أفندي » يتطلع إلى زهرة جديدة ، فوقع اختياره
على « بهية » ... وهي فتاة في ريق الشباب ، وريبع الحسن ،
فتزوجها ، وحملها إلى داره ، ولكنه أبى مكانة الصدر لزوج
الأولى .

ولكن ما نفع « فتنة » بأن تكون صدر الدار ، وأن يكون لها المقام
الأول ، وهي تحس بأنها شورك في رجلها ، وفقدت قلبه ، بعد
أن أفنت أكرم عمرها وفاء لزوج لم يؤثر الوفاء !

ولقد راب « فتنة » من جديد أمرها أنها قد استشعرت عاطفة
غريبة لا تفتأ تنمو ، وإنها لتزداد على الأيام من تضرّم واتقاد ...
أهي عاطفة ذلك الحب الأصيل يريد أن يظل المالك المسيطر ؟
أم هي عاطفة حقد مكين يترع إلى التشفى والقصاص ؟ أم هي
مزاج من عاطفتين متناقضتين من مقت وتعلق ، اتخذ من سريرة
« فتنة » مسرحاً للقتال والصراع ؟ ! ...

لم تلبث « فتنة » حين شورك في رجلها أن بدأت في الحياة عهداً جديداً لم يكن لها به عهد ، عهداً تقاسى فيه ذلك الشعور الناتج الحائر الذي لا يفتّر عنها في صحو ، ولا يُشفق عليها في أحلام ... إن « فتنة » لتذكر أنها لما آتست نُذِرَ هذه العاصفة ، وفطنت إلى أن قلب زوجها أخذ يشره إلى شيء جديد ، لم تدخر وسعاً في سبيل الاحتفاظ بذلك الزوج ، وثنيه عن عزمه ، فابتغت كل الوسائل من رعاية وتحن تارة ، ومن تواعد وتهدد تارة أخرى ، فما أجدت وسائلها في التأثير . وكيف لها أن تطمع في إذعان « عثمان أفندي » لإرادتها ، وهى التى ما إن يقع بصرها على شاربه المسنون يراقص ثائراً على شفثيه ، كما يراقص شارب الأسد إذا تهيأ للوثب والانقضاض ، حتى ترى نفسها قد عاجلتها استكانة واستسلام ؟ ! ...

وأكبر ما آلم « فتنة » وأوغر صدرها أن زوجها لم يكتف باتخاذ ضرة لها ، وإنما أضاف إلى ذلك أنه أسكن تلك العدوّة معها ، يُظلهما سقف واحد ، غير متورع عما يلحقها في ذلك من بالغ الأذى ...

أما الرجل فإنه في الحقّ ما تعمّد زوجه الأولى بإهانة ، ولا رضى لها المذلة ، ولا أحس بأنه يأتّم في هذا الصنيع ، وإنما كان عميق الإيمان بأن الجمع بين الزوجتين أمر لا تأباه سنة الحياة ، ولا تنكره شريعة الله !

وما له يحشّم طاقته فتح بيتين ، ويقسم نفسه في مكانين ؟ إن

زوجتيه كليهما بعضُ أسرته ، ومن خير الأسرة أن تكون في كنف عائلها مجتمعة ، وبظله محتمية ...

وما لزوجه الأولى تجدد جميله فيما اتخذ من خطوة ، ولا تقرر بفضلها فيما آثرت من عمل ؟ لقد كان في مُمكنه أن يُلقى عليها كلمة الطلاق ، وأن يفسح البيت كله لزوجه الجديدة لا يشركها فيه شريك ، ولكنه استنكف أن يفعل ذلك ، وفاء لماضيها معه ، وعرفانا لحقها عليه ، وأبت نفسه إلا أن يوفر لها الكرامة ، ويقر لها بالصدارة ، فأبقى عليها سيدة بيته الأولى ...

وما كان لشيء ألا يتم وفق إرادة « عثمان افندي » ، فقد ائتملت أسرته الصغيرة تحت جناحه ، وجرت الأمور في أعنتها كما يهوى ، ورفرف الأمن والسلام على بيت الرجل ، حتى تناقل الناس حديث تلك الأسرة التي تُعدّ طرازاً فريداً للصفاء والرفاء ...

توخت « فتنة » في العيش مسلکاً حميداً لم تر عنه حميدا ، ذلك هو إحسان المعاملة لضررتها « بهية » ، وقد أعانها على ذلك أن « بهية » كانت فتاة خاملة النفس ، خوّارة العزم ، أجنح ما تكون إلى السكينة ، أجنح ما تكون للنزاع ، وكانت أعصابها مترخية ، وبينيتها متداعية ، على الرغم مما تكتسى به من سمانة وامتلاء ...

اطمأنت « بهية » بما لها من مكانة ، في قلب الزوج ، وآنت أنها مطمئح عينيه ، ومألف روحه ، فهاذا وراء ذلك يدفعها إلى التطلع ؟ إنها لتنزل طيبة الخاطر عن إدارة البيت ، ورعاية شؤنه ، للزوجة

الأولى « فتنة » ، وفي ذلك إعفاء لها من مشقة العمل ، وكلفة التدبير ،
فتفرغ بنفسها لقلب زوجها تُنىءُ عليه المتعة والإيناس ...
ولعل « فتنة » كانت تحاول أن تناسي ذلك المثل السائر :
لا جديد تحت الشمس !

والتاريخ يعيد نفسه !

أليس الذى حدث اليوم إنما هو تكرار لما حدث معها بالأمس ؟
بدأ « عثمان افندى » حياته زوجاً لامرأة لم يكد شبابها يولى حتى
وقع بصره على « فتنة » فى صباها النضر ، فهام بها ، وأضافها زوجاً
ثانية ، فأذعن تلك الزوجة الأولى لما كان ، كما تدعن « فتنة »
الآن ... ولكن تلك الزوجة الأولى عاجلتها المنية ، فانتشلتها من
جحيم الغيرة الحرساء ، وخلا « لفتنة » وجه الطريق !
لا تستطيع « فتنة » أن تنسى تلك المأساة ، وكلما ساءلت
نفسها :

أىكون لها مثل ذلك المصير المشؤم ؟

أحسّت وقْدَةَ الحمى فى دمها ؛ من أين لها أن تطيق ترادف الأيام
تسقيها ذلك السم الكريه قطرات ؟ ! ...

لبثت تفكر ، وما فتئت تفكر ، دون أن تهتدى إلى ما يريح
فؤادها من ذلك العذاب ... ولكنها ملكت أن تكبت شعورها بما
أوتيت من صلابة الطبع ، وجرت قافلة البيت فى جو ظاهره الهدوء ،
فأيقن « عثمان افندى » وهو يطوى أيامه بين زوجته ، أنه قد فرغ من

مشكلة الضرتين ، وانتصر برجولته على تلك الصغائر التي تثيرها غيرة النساء !

وكان عزيزاً على « عثمان افندى » وهو المؤمن بسطوته ، المعترّ بهيمته ، أن يشقّ بالنظر النافذ ذلك السطح الناعم الأملس الذى يغشى بيته ، ليستجلى تلك التيارات المتدافعة تعلو وتهبط لا يقر لها قرار ، فحسبه ما يراه حوله من شيوع الأمن واستتباب النظام !

لم يُعنَ الرجل مما كان من ذلك الانقلاب السلمى الذى لحق بزوجه « فتنة » ، ذلك الانقلاب الذى جعل من تلك المِمرّاح الطروب امرأة رزينة ركيئة صُموتاً صارمة القسمات ...

لقد هزل وجهها ، فازداد طولاً ، وَضُمَرَ عودها فتقوّس ظهرها ، وأصبحت تمشى مَحْنِيَةً كأنّ برجلها قيداً ...

لقد انطوت على نفسها تحتضن حقدّها الواغل ، وتتعهدّه بالرعاية والصون ، كأنّها تخشى عليه أن يذهب هباء .

لقد آثرت أن تحيا فى توحد وانفراد ، بجوار نافذة حجرتها المطلة على الطريق . فهى تلبث الساعة بعد الساعة مُدْلِيَةً بأنظارها فى سهوم ؛ وما كان بصرها فى الحق يقيّد شيئاً مما تراه العيون ، فإن عينها كانتا مصروفتين إلى تصفّح مشاهد أخرى من حياة صَـرَّتْهَا الأثيرة عند الزوج ، وما تجده تلك الضرة الرّخوة المكسال من حُظوة وقبول ... وما كانت « فتنة » تقنع بما آتّيه ذاكرتها من حقائق تلك المشاهد فى حياة البيت ، تلك المشاهد التى كانت تتراعى فيها « بهية » مكرّمة

منعمة . وإنما كانت « فتنة » تستعين الوهمَ والخيال ، فتبتدع الأحداث ،
وتؤلف الصور ، وكلما أوغلت في التوهم والتخيل لجأت بها الرغبة ، واشتد
الظمأ ، كأنما هي النار ، إذا ما زيدت وقوداً ازدادت من تسعر واضطرام ...
لقد كان يَلَسْدَ « لفتنة » أن ترقب « بهية » في دقائق حياتها ،
وما لها من غَدَوَات وَرَوَحَات ، فما كان يغيب عن ملاحظتها شيء مما
تفعل . ولا سيما حين يَقْدَم الزوج في مواعيد أوبته إلى البيت ،
واستقراره فيه ، إذ كانت « بهية » تأخذ زينتها ما وسعها أن تأخذ ،
ولا تفتأ دانية من الباب ، تأهباً للاستقبال ، تُلْقِي السمع إلى خفق أقدام
السابلة في يقظة وتنبه ... فإذا رَنَتْ خطا الزوج المنتظر ، تلك الخطا
الثابتة المصحوبة بقرع العصا ذات المقبض العاجي ، شوهدت
« بهية » قد تورّد محياها ، وافترت ثغرها ، وأمسكت بمصرع الباب تفتحه
للقادم الحبيب ، فما تكاد عين الرجل تقع عليها ، حتى يتهلل ويتطلق ،
ولا يُعْتَم أن يتلقى « بهية » بين ذراعيه ، وما هي إلا أن تغشاهما موجة
من المداعبات والمفاكهات وفضول الأحاديث !

ذلك كله كانت تحرّص « فتنة » على أن تراه من خصائص الباب ،
وأنفاسها تتواثب ، وأوصالها تنتفض ، على حين تستمرئ تلك النشوة
الغريبة ، نشوة إمداد حقدّها الكمين بأسباب الغذاء والنماء ...

وكم من مشاهد على هذا الغرار ، أبت « فتنة » إلا أن تستمع بمرآها ،
لتدكي بها ما بين جنبها من بغضاء .

وكان الليل يَفِد على « فتنة » أقسى ما يكون همّاً وويلاً ، ذلك

الليل الذى هو ملاذ المحبين ، ومثابة المتعة والإيناس ... إن « فتنة » لتقصيه ساهدة يقضى ، يتلذّع فؤادها على مثل الجمر ، لا يرحمها القلق لحظة ، فهي حيرى تارة تذرّع حجرتها فى احتياج ، وتارة تخيف إلى باب حجرة زوجها تتسمع وتترقب ... وكانت تجيش بين أحنائها رغبة جامحة ملحاح ، هى أن تقتحم الباب ، فتنتزع تلك المرأة الرّخوة المكسال من بين أحضان الزوج ، ثم تسقط عليه فتطوّقه بذراعيها العنيفتين ، وتُنحى عليه تقييلا كأنه تهش الأفاعى ، حتى لا تسبق فيه على إثارة من أنفاس !

تلك هى دخيلة ما كان يجرى فى بيت « عثمان افندى » ، بيته الهادئ الوداع الذى يحتوى أسرة يحسب الناس أنها تخفق عليها راية الأمان ، وتشيع بينها علائم المودة والصفاء !

وحان اليوم الذى مُحمّل فيه « عثمان افندى » إلى البيت ، وقد ضربه الفالج ، فأصبح نصف حيّ أو نصف ميت ، بل إنه لميت حقاً ، ولكن الحياة نسيّت فى بعض أوصاله نُفَاية من نفاياتها سترول عما قليل ... وفى تلك الفترة شرعت المأساة الكامنة فى البيت ترفع عن وجهها النقاب ...

لم تكد « فتنة » ترى ما حل بالزوج ، حتى سيطرت فى لحظة على كل شىء فى الدار ، باذلة ما فى الوُسْع من عزم وحزم ، فملك الموقف ، وشدّت الزمام ...

كان مَثَلها فى ذلك مَثَل القائد الألعى الذى لا يكاد يأنّس

اقترب نهاية الطاغية في آمة ، وانفلات الأمر من يديه ، حتى يبادر
 بإقامة نفسه مقام هذا الطاغية ، يدبر الأمر ، ويقمع الفوضى ،
 ويضرب على أيدي العصاة !

سرعان ما ألفينا « فتنة » تسدل ستارة غليظة بين البيت وما وراءه
 من العالم الخارجي ، حتى إن « بهية » لم تكد تفيق من ذهوها حتى
 وجدت « فتنة » قد حملت الزوج إلى حجرها ، فاختصت به ،
 وتولت رعيه وتعهده ، ووقفت دون بابه تمنع الوصول إليه .

وَشَدَّ ما تطلعت « بهية » إلى أن تتفقد الزوج ، أو أن تسأل
 عنه ، أو أن تتعرف ما طرأ من شأنه ، فإذا « بفتنة » تفجؤها برد حاسم
 مقتضب ، وقد انعقدت على جبينها أسارير صارمة ، فلا تجد « بهية »
 مفيضاً إلى كلام ، ولا تلبث أن تراجع مخدولة مقهورة ، لا طاقة
 لها إلا بعين تدمع ، ولسان يلهج بالضراعة والغوث ...

فأما الزوج فكان فاقد النطق ، فاقد الحراك ... وقد استحال
 في لحظة من طود شامخ يهتز فيززل الأرض تحت قدميه ، إلى حطام
 ورفات ...

هذا الإنسان العتيّ الجبار الذي كان يمشى فتحف به العيون ،
 إكباراً له ، وإعجاباً به ، لقد صار الآن في مضجعه كومة من اللحم
 وعظم ، لا سمة عليها من مهابة الحياة !
 لم يبق له من أسباب الاتصال بالعالم الخارجي إلا بصر يبرق ،
 وسمع يتلقط ...

وأى بصر ؟ إن هو إلا نظرات كابية زائغة ، كلما اجتهد أن يتخذها للتعبير عما يجيش في نفسه ، خائنه ولم تكن له عوناً ...
 وأى سمع ؟ إن هو إلا سمع ثقيل مضطرب ، لا يُنبئه إلا أطراف الحديث منقوصة تزيد من حيرة وقلق ...

فأما كل ما أبقت له الكارثة من قدرة وسلطان ، فهو تلك الحشرة المحتبسة التي يصعدها بين حين وحين ، حاملةً إلى عالم الأحياء رسالة الآلام والحسرات !

توقد نشاط « فتنة » وحميتها في خدمة البيت ، فاستخفى ذلك الشبح الركين الصموت المتقوس الظهر الذي كان يجر جر خطاه ، وظهر مكانه مارد فارع القامة ، جبار الخطوة ، سريع التنقل ، يقلب حواله أنظار صقر مفترس ! ..

أقبلت « فتنة » غداة الكارثة على حبرتها حيث اعتقلت زوجها ، فجلست عن كُثب منه ، وشاع بينهما الصمت هنيئة ، وكان الرجل يبذل جهده محذِّقاً في وجه « فتنة » كأنه يحاول أن يكتنه ما يحيط به من مظاهر ، وأن يستجلي ما تُكنه سريرة تلك الزوجة من مشاعر ... وكانت تبدو على غضون وجهه مهانة الضراعة ، وذلة السؤال ، وكلما أمعن في التحديق والتطلع إلى « فتنة » تشاغلته عنه ، وأشاحت بوجهها دونه ، فلا يملك إلا ترجيع الأنين ...

وبعد لآى نطقت المرأة تقول :

ربما عجبت : كيف لم نُحضر لك الطيب ؟

وتخيلت على فمها ابتسامة نكراء ، وواصلت قولها :

وما نفعُ الطبيب يا سيدَ الرجال ؟ إنه لا يؤخر الأجل عن مواعده ،
داؤك واضح ، وأنا عارفة به ... أصيبتُ به أى فلم يُمهلهَا أكثر من
يومين ... يومين اثنين !

واختلجت عين الرجل ، وتشنّج شدِّقاه ، وتابعت المرأة قولها
كأنها تتحدث إليه حديثاً مألوفاً لا غبار عليه :

وفيم العجب ؟ كلنا إلى الموت نصير ... لقد تبَّين لى أن حالتك
كحالة أُمى سواء بسواء ... وإن إخلاصى لك ليدعونى أن أصارحك
بهذه الحقيقة ، حتى تتأهب لتلقى وجه الله !

وصممت « فتنة » وقد تلهَّب فى عينيها وميض ساطع ، ثم همهمت
تقول :

ولكن لست أدري بأى وجه تلقى الله ؟ وقد أسلفت فى دنياك
هذه المخازى التى يتورع عنها الأبالسة والشياطين ... كنت تحسب
أنك قادر على أمرك إلى الأبد ، وأن الدنيا تدين لك على الدوام ،
فظلمت تُصعد وتُصعد ، وتُدلى إلى من هم دونك نظرات إصغار
وإزراء ... حقاً ما أعظم المرض من قاهر ، وما أقوى الموت من
مُذل ! ... ما برحت فى مهلة من عمرك للتوبة والاستغفار ، تطهيراً
لنفسك ، واستدراكاً لأمرِك ! .. ولكن لا تحسبن أن الموت ممهلك
أكثر من يومين ، مضى منهما بعض وقت ! .. إن أى حلت بها مثل
كارثتك ... فى مثل الوقت الذى حلت بك فيه ... وقد ماتت فى

مَبْرِقُ الصَّبْحِ ... وَسَمَوْتَ أَنْتِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَيْنَهَا لَا مُحَالَةَ ! ...
فَنَدَّتْ مِنْ صَدْرِ الْمَرِيضِ زَفْرَةً مَرْتَعِشَةً ، وَغَارَتْ فِي وَجْهِهِ
الْأَخَادِيدُ ، وَعَالَجَ أَنْ يُحَدِّثَ مِنْ بَصَرِهِ الْكَابِي ، فَتَرَجَّحَتْ حَدَقَتَاهُ ،
كَأَنَّهُ فِي اضْطِرَابِهِ وَحِيرَتِهِ ، يَتَسَاءَلُ :

أَيْقِظَانِ هُوَيْرِي وَيَسْمَعُ ؟ أَمْ نَأْتُمُ تَتِيهِ بِهِ الْأَحْلَامُ ؟ ... أَهَذِهِ
« فِتْنَةٌ » قُبَالَتِهِ تَحَدِّثُهُ ؟ أَمْ ذَلِكَ شَيْطَانٌ تَشْكَلُ لَهُ فِي صُورَتِهَا وَزِينَتِهَا ،
وَجَعَلَ يَرُوعُهُ بِالْمُنْكَرِ مِنَ الْقَوْلِ ؟

وَفَطَنْتِ الْمَرْأَةَ إِلَى خَوَانِجِهِ ، فَرَفَعَتْ مِنْ صَوْتِهَا ، وَهِيَ تَتَدَانِي إِلَيْهِ قَائِلَةً :
كُلَّ مَا تَسْمَعُهُ وَمَا تَرَاهُ حَقٌّ لَا مَسْحَةَ لِلخَيَالِ فِيهِ ... إِنْ
زَوَّجْتُكَ « فِتْنَةٌ » بِلَحْمِهَا وَعَظْمِهَا هِيَ الَّتِي تَتَحَدَّثُ إِلَيْكَ ... إِنَّهَا
أَمْرَأَتُكَ الْوَفِيَّةُ الْمَخْلُصَةُ الَّتِي صَدَقَتْ فِي حُبِّهَا إِيَّاكَ ، وَوَهَبَتْكَ حَيَاتِهَا
جَمْعَاءَ ، فَكَافَأَتْهَا بِأَشْنَعِ الْجُحُودِ وَأَقْبَحِ الْجَزَاءِ ... لَقَدْ أَشْرَكَتَ بِهَا
فِتْنَةً حَقِيقَةً غَرِيْبَةً لَيْسَ فِيهَا مَا يَغْرِى الْقَلْبَ أَوْ يَسِّرُ النَّازِلَ ... لَا يَتَبَادَرُ
إِلَى ذَهْنِكَ أُنَى غَيْرِهِ ... وَهَلْ أَحْفَلُ بِتِلْكَ الْحَشْرَةِ الْمَمْقُوتَةِ فَأَحْسِبُ
لَهَا أُنَى حَسَابٍ ؟ ... مَاذَا بِهَا مِنْ مِيزَةٍ تَبْعَثُ غَيْرَتِي ؟ ... إِنَّهَا عَاطِلٌ
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ... شَدَّ مَا سَقُمَ ذَوْقُكَ ! ... لَوْ كُنْتُ أَصْطَفَيْتَ لَكَ
زَوْجَةً ذَاتَ حَسَنِ بَاهِرٍ ، أَوْ سَلِيلَةَ بَيْتِ مَاجِدٍ ، لَأَلْتَمَسْنَا لَكَ الْمَعَاذِيرَ ،
وَلَكِنْكَ لَمْ تَنْظُرْ إِلَّا بِفَضَالَةٍ مِمَّا تَلْفِظُ الْأَزْفَةَ وَالْحَارَاتِ ، فَرَفَعَتْهَا بِغَفْلَتِكَ
إِلَى صَفُوفِ الزَّوْجَاتِ الْكَرَائِمِ ... عَلَى نَفْسِكَ جَنِيَتْ ، وَعَلَيْهَا أَيْضًا
كُنْتَ جَانِيًا !

وكان « عثمان افندى » فى مرقده ، تزداد غصون وجهه ، واختلاجات عينيه ، على حين استأنفت المرأة تقول فى صوت أبج ، كأنه فحيح الأفاعى :

أنصح لك أن تهدئ من ثأثرتك ، وأن تهون على نفسك ...
لا يجدى عليك الحنق فتىلا ، لا يطيل من أجلك كثيراً أو قليلا ...
بل لعله يسرع بك إلى المصير المقسوم ، والقضاء المحتوم ... ولو مت
قبل الموعد المضروب لأفسدت على التدبير ، ولزججت بى فى حرج وضيق ...
لقد ربتُ أمورى على أنك مُسلمٌ رُوحك مع الفجر ، فأوصيتُ باحتفار قبر جديد لم يطأه جثمان ، وسنقيم لك على القبر بناء من المرمر المصقول ... فأما الجنازة فقد هياتُ لها نظاماً سيكون غاية فى الروعة ... إني امرأة تعرف الواجب للعشير ، وإن أنكر هو ما كان واجباً عليه ... إن كان لى عيب فهو الإحسان لمن أساء إلى ...
وعلى الرغم من كل هذا أراك معنأ فى طيشك ... أراك تُغمض من عينيك ، كأنك تأبى الاستماع لما أقول ... ولكنك تنسى أنك لا تسمع بعينيك ، فإن لك أذنين ضخمتين تلتقطان أخفى الهمسات !
واندفعت كالسيل تمّ قولها ، والرجل مطبق أجفانه ، يتجرّع تلك السموم التى تنفثها تلك المرأة جملا وكلمات ...

وما زالت المرأة تقول ، حتى بح صوتها ، وجف حلقها ، فنهضت إلى القلة تكرّع منها ، ثم رجعت بها إلى الرجل ، ووضعت حافتها على شفثيه ، فما إن أحس نداوة الفخار حتى انفرجت شفثاه ، وهو على حاله مغمض

العين ، فصبت المرأة في فيه جُرعات قلائل ، وهي تعينه على أن يُسيغها في غير عناء ... وكانت تردّد :

لا تظنني أسىء معاملتك ، وأنت في هذه الحالة ... سأقيم على خدمتك حتى الرمق الأخير ، أعني حتى مطلع الفجر ! ...

وانصرفت عن الحجرة وقتاً ، ثم قفّت إليها تحمل صحفة فيها حساء ، فقرّبتها من الرجل ، وانحنت عليه تسقيه بالمعلقة في رعاية ، كأنها تطعم طفلاً قريب عهد بالفطام ...

ولما فرغت من إشرابه الحساء ، أقبلت عليه تمسّح فيه ، وتُغني بترجيل شعره ، وتنظّم فراشه ، ثم همهمت تقول :

لعمري إن موتك ليشقّ عليّ ... مهما يكن من أمر ، فما أقسى ساعة الوداع بين اثنين جمعت بينهما المعاشرة جنباً إلى جنب ، فترة من الزمن !

كذلك كان شأن « فتنة » مع « عثمان افندى » وهو طريح سريره ، أسيرُ علته . أما شأنها مع « بهية » فقد دخلت عليها في حجرتها ، وأبلغتها في صرامة ألا تبرّح الحجرة ، وألا تصدّرَ منها نائمة أو صيحة ، وإلا كانت العقبي أَوْخَمَ ما تكون ...

ثم ألقت عليها نظرة ذابت من حرارتها أعصاب « بهية » فلم تملك ردّاً ، وما هي إلا أن غادرت « فتنة » حجرة صرّتها ، وأحكمت إغلاق بابها بالمفتاح ...

ولبثت « بهية » في الحجرة طول النهار ، حبيسة ، موزعة

الخواطر ، تشرّدها الهواجس كل مُشرّد ، ولكنها لم تجد سبيلا إلى غير الطوع والإذعان ...

لبثت في محبّستها تلك الساعات الطوال ترهف السمع ، فلا يتناهى إلى أذنها إلا خفق أقدام « فتنة » يحمل إليها الرهبة والفرع ... ومتى انقطع خفق هذه الأقدام رزح في الحجرة صمت ثقیل يخمد الأنفاس ...

وما كاد ضوء الأصيل ينهزم في معركة الليل المقتحم ، حتى ضاقت « بهية » ذرعاً بما تجد من ظلمة وإيحاش ، واستشعرت ثورة مباغتة ، فشرعت تطرق الباب في إصرار ، فما هي إلا أن قدّمت « فتنة » فدخلت من الباب كالإعصار ، ووقفت قبالتها تردّد في صوت مختنق :

ما هذه الجنّة ؟ ألا تُشفقين على المريض ؟

وألقت على « بهية » نظرات سراعاً ، ففطنت إلى أنها تتحيّل للهرب والانفلات ، فأمسكت بها تنهال عليها لطماً ولكماً ، حتى أوشكت أن تسلبها الحياة ...

ثم وقفت تنظر إلى « بهية » وهي مصروعة تحت قدميها ، كما تنظر النمرة الضارية إلى فريستها بين المخالب ... وانبرت تقول :

يظهر أن الله قد كتب على الشقاء في دنياى ... حتى لقد أراد لى في آخرة عمرى أن أتولى تهذيب أمثالك من حثالة الأشرار والأوغاد ...

أعلى اليوم أن أصلح منك ما أفسدته السنون ؟ لا بأس ... إلى حمول صبور ، وسأضطلع بهذه المهمة ، لا آلو جهداً ...

وخرجت « فتنة » من الحجرة ، فأحكمت إغلاق بابها كما كان ...
وجنّ الليل يضرب رواقه على هذه الدار ، حاملاً في تضاعيفه
ثقال الهموم وعظائم الأسرار ...

وأبت « فتنة » أن تضيء في حجرات الدار أى مصباح ، فلم
يتجدّش حندس الليل فيها إلا فلول مهزولة من أضواء الطريق ...
وازدادت الظلمة وحشة ورهبة بما ران عليها من صمت عميم !
ولذ « لفتنة » أن تجوس خلال الدار ، تخترق ذلك السجّف
المتكاثف من الصمت والظلام ، كأنها شيطان مريد يهيمن في كهفه
على روحين سجينين ! ...

وأخيراً شاءت إرادة « فتنة » أن توقد شمعة على رأس زوجها
المريض ، زاعمة له أنها تريد إمتاعه ببصيص من النور ، قبل أن يُجرم
في مطلع الفجر نور الحياة ، ليستقبل إلى الأبد ظلمة القبر ! ...
وعلى الرغم من ذلك السكون المطبق ، كان كل شيء في كهف
الشيطان يُشعر بتيار خفيّ من اليقظة والانتباه ...

يا لهذا الليل العجيب في ذلك الكهف الأسود !
لم يعد ليل نوم وراحة وسكون ، ولم يعد مثابة أطراح للهموم ،
ونسيان للمتاعب ...

إنه الساعة ليل تحوم في جوانبه الذكريات الأليمة ، كأنها
الخفافيش تدف بأجنحتها مدعورة غصبي ...
وما زالت تلك الخفافيش تنتقل في حجرات الدار ، حتى بلغت

مأوى « بهية » فى ركن من أركان الحبس ، فما إن أهدت بها تضرب رأسها فى شدة ، حتى هبت « بهية » تطلق من حلقها صرخة مكروبة ، تتبعها صرخات ، لا تدرى أهى تأوّه وتوجّع ؟ أم استغاثة وتضرع ؟... واندفعت فى بكاء وإعوال ، فبلغ عويلها سمعَ عابر سبيل ، فوقف يتطلع إلى نوافذ الدار هنية ، ثم تنهد ، ومضى فى طريقه يردد :

الدوام لله يا « عثمان افندى » !

وأقبلت « فتنة » على حجرة « بهية » مهتاجة مُحنّقة ، فما إن لحت « بهية » شبحها ، حتى هجمت عليها هجمة مستبسل مستيئس ، وما أسرع أن التحم الخصمان ، ولجّ بهما التطاوع والتقاؤل فى صمت لا يقطعه إلا هدير الأنفاس ...

وانجلت المعركة عن « بهية » مُوثّقة مكمنة الفم ملقاة على الأرض تتلوى فى جهد وإعياء ... وأما « فتنة » فواقفة مجنّحة الذراعين ، يتفصد وجهها عرقاً ... وبعد قليل شرعت تقول متلاحقة الأنفاس : لعنك الله من شيطان فى ثوب إنسان ... شدّما كنتُ مخدوعة بك ، وحقاً لقد استطعت أنت فى هذه الفترة الماضية أن تخفى عنا ما انطوت عليه نفسك من أذية وشر ... ما كان أمهرك فى الظهور بمظهر المسالم الوديع ، ولكن ها قد برّح الخفاء ، وانكشف الغطاء ، فلم يكن بدّ من أن آخذك بالشدة ... ولستُ ألام على ما أفعل ، فالشر لا يُحسَمُ إلا بشر ...

وتركت «فتنة» الحجرة ، واستعادت الدار ما كان فيها من وحشة الصمت الثقيل ، واستأنفت خفافيش الذكريات سعيها في جوانب الدار تضرب الرعوس بأجنحتها الشداد ...

وكان الليل يسرى ... يحسّ السجينان - «عثمان افندى» و«بهية» - سراه بطيئاً بطيئاً، كأن دقائق الوقت تتودها القيود والأصفاد، بل إنهما ليشعران بأن الزمن يدركه الإعياء ، فيقف بين الحين والحين جامداً فاقدَ الحراك ... على حين تشعر «فتنة» بأن الوقت يمضى قدماً ، كأنما يقطع مراحل الليل وثباً ، فتعجب لسرعته ، وتخشى أن يفوتها تحقيق ما اعتزمت من أمر ، في مطلع الفجر ... في تلك الساعة المرهوبة التي تراها مفصلاً بين حياة وموت !

ذلك كان شعور أهل الدار نحو الزمن في سيره ، والزمن منطلقاً لطيبته ، يُلقى على هذا الكهف العجيب ظلالاً ابتسامته الخالدة ، تحمل في تضاعيفها السخرية والاستهزاء !

وكان المريض قد أخذته سِنَّة من النوم ، فأنبهته حركة طارئة ، فاجتهد على بصيص الشمعة المتخاذل أن يتبين ما طرأ ، فطالعه مشهد انخلع له جَنانه ، إذ رأى «فتنة» تدخل الحجرة وهي تجر جرُجسماً مؤثقالاً يندب عنه أنين خافت ، وما لبثت أن ألقت بالجسمان على مقعد قبالة مرقد المريض ...

وعالج «عثمان افندى» أن يُحدّ بصره ، حتى لكأن حدّ قسّيه نهمان بالانفكاك عن منجبريهما ، ثم شق عليه ما يرى ، فما عثم أن

أطبق جفنيه من جَزَع ...

ووقفت « فتنة » وسط الحجرة ، وقد وضعت يديها في خصرها ،
وبدت مرفوعة الهامة ، براقة النظرات ، مربدة الوجه ، منقوشة الشعر ،
تتخايل عليها الظلال متراقصة خلف بصيص الشمعة الخابية ...

يالّه من شبح راعب مفزّع !

لكأنه كائن من عالم بعيد ، لا يمتّ بصلة إلى ظهر الأرض ،
عالم الخوارق والطلاسم والأساطير ! ...

وإن المريض ليرتعش جفناه ، فتتفدّ منهما نظرة إلى ذلك المشهد ،
فسرعان ما يخيّل إليه أنه قد انتقل هو وزوجته إلى الدار الآخرة ،
وأن المكان الذى يحتويهم الآن ليس هو إلا ركنا من أركان جهنم يتلقون
فيه عسير الحساب ، وأليم العذاب !

وعلى حين فجأة ، ارتفع صوت « فتنة » قائلاً :

الفجر يتدانى ، والموت يقترب ... وإني امرأة أعرف ما يليق ، ولا
أقصر فى أداء واجب ... وكان حقيقاً بي أن أجمع بينك يا « عثمان
افندى » وبين زوجتك الأخرى فى ساعة الوداع ... ثق أن ضلوعى
لا تنحنى على ضغن ، وإنما أنا مخلصه صافية غاية الإخلاص والصفاء .
وليس الذى يبدو من حدّتى وعنقى إلا عارضاً على الرغم منى ، فأنتما
تضطّرّانى إلى ذلك أشدّ الاضطراب ... هذه « بهية » أمامك يا « عثمان
افندى » فتملّ مَرّآها ، وتمتّع من رَيّاها ، ولتغنم هى أيضاً هذه
الفرصة فتشاركك فى التملّى والتمتّع ، ولكن إياكما أن تنسّيا التكفير عن

خطاياكما ، والاستغفار من ذنوبكما ، من سوء معاملتكما لإنسانة لم
تتلكما بأذية ، ولم تُردّ بكما أى ضرر !
وصمتت المرأة لحظات ، ثم استأنفت تقول ، وقد بدأ صوتها
تشيع فيه نبرات من التحسّر والتحزن :

ماذا كان منى يا « عثمان افندى » حتى تجزئنى جزاءك القاسى ؟
ألم تذق على يديّ شَهْدَ السعادة حُلُوءاً مصفى ؟ اذكر سِوَالفَ أيامى
معك ، ووازن بينها وبين حياتك من قبل ، فإنك واجد أفى كنت لك
يُمناً وبركة ... أفى طوفك أن تنكر حبي إياك حباً ليس وراءه مطمع
لِاستِزِيد ؟ وهل كان فى مستطاع امرأة أن تحبك فوق ما أحببتك ،
وأن تكون بك متلطفة كما تُلطفُ بك ؟ لا تخذَ عنك الظواهر المزورة ،
والكلمات المعسولة ، من تلك التى ضممتها إليك ، فأنت أعقل من
أن تجوز عليك مثل هذه الأخاديع !

وهنا أخذ صوتها يرقّ ويتحنن ، وتنتابه رعشة ، وإذا هى تقول :
مهما يكن من أمر فإنى لك مسامحة ، وكذلك سامحتُك أنت أيضاً
يا « بهية » ... ليس لى إلا أن أوثر العفو فى هذه الساعة المرهوبة التى
تقرب فيها طلائع الموت ... ليس لنا جميعاً فى هذه الساعة يا « عثمان
افندى » إلا المودة والتصافى ... ليس لنا إلا إسبال الستر على ما كان ...
فى هذا الوقت الفاصل أجاهرُك فى غير خجل ولا حياء ، أمام ضرقى ،
بأنى ما زلتُ أحبك ... هذا حق ... فما بَرِحَ حبي إياك يَعْمُرُ
جوانحى ! ...

وَشَرِقتُ « فتنَةً » بدمعها ، فإذا بها ، على حين فجأة ، تهبط
على حافة السرير ، وترفع الصمام عن عاطفتها المكبوتة ، فاستبدت
بها نوبة جياشة من البكاء ، وقد دست وجهها في ثنايا الفراش ،
ويداها متشبثتان بحواشيه ...

وأخيراً رفعت « فتنه » رأسها ، وقد ذكرت شيئاً أثارها ، فتلفتت
جزيرة تهمهم :

يا لله ! ... يا لله ! ... شدم ما يهمل الإنسان واجبه في سبيل
عاطفته ... ولكن الزمن لا يعرف للعاطفة معنى .

ونهضت صلبة القامة ، خفيفة الحركة ، وقد أحست كأن أثقالا
كانت تنوء بها قد وُضعت عنها . وما أسرع أن كفكت عبراتها ،
واستبان على محيّاها إشراق ...

ووقع بصرها على الكؤومة المطروحة على المقعد ، فقصدت قصدَها ،
وشرعت تحلّ وثاقها ، وتترع الكمامة عن فمها ، وهي تهيم :

ليس الوقت يا « بهية » وقت حقد وانتقام ... نحن الآن على عتبة الموت ،
فلنغسل أوصار الماضي ، ونعد أنفسنا لمرضاة الله ... هنالك في العالم الآخر
سنحيا ثلاث نساء في عصمة زوج واحد ... هذه إرادة الله ... ولكننا

سنحيا حياة هائلة ، لأن الدار الآخرة لا مكروه فيها ولا هوان ! ...
وأضحت « بهية » طليقة لا قيد ولا وثاق ... ولكنها ظلت على
مقعدها بلا حراك ... أسمع قول « فتنه » ووعته ؟ أم لم تملك له سمعاً ؟

أفي غيبوبة هي ؟ أم دهاها شيء أخرجها من عداد الأحياء ؟

والتفت «فتنة» إلى «عثمان افندى» وهى تقرب من فراشه وتقول :
ستجمع بين ثلاث زوجاتك ، ولكنك لن تعرف إلا العدل
بينهن ، فتكفل لهن جميعاً عيشة رغيدة !

وانحنت عليه تحتضنه وتقبله ، ثم فارقه فى ثبات وسكينة إلى
النافذة ، ففتحتها ، فأنست لحات السحر تضيء الأفق ، فأغلقت
النافذة واتجهت إلى عُقب الشمعة الهزيلة ، فتناولته بين أصابعها ،
وألقت به على صرة من متاع كانت عن كُثْب من فراش الزوج ...
وما أسرع أن اندلعت السنة الذهب !

وانشت «فتنة» إلى مرآة على منضدة الزينة ، فجعلت على ضوء
الذهب المتوهج تمشط شعرها ، وتصففه ، وتطريه بالدهان ، وتستكمل
زينتها بالتكحل والتعطر ...

وبلغت من ذلك مأربها على عجل ، وخطت إلى الباب ركيئة
القدمين ، وعيناها تتيه نظراتها كأنهما تجوسان خلال أفق بعيد...
وبلغت الباب ، فأخذت بمصراعه ، تفتحه ، وأشارت بيدها
كأنها تأذن لطارئ بالدخول ...

وعادت إلى جانب السرير تجلس على الأرض ، وقد توغلت النار
تأنى على الفراش ، والمرأة تحدق أمامها ذلك التحديق التائه ، وقد
تخايلت على فيها بَسْمَة عجيبة ، لا تدرى : أبَسْمَة روح من الملائك
هى ؟ أم بَسْمَة شيطان مريد ؟ .

وكانت شفتها تختلجان بهذيان غير مُبين ! ...

ف
ال
ط
علي
في
أق

ثَلَاثِي عُمَرَ الْخَيَّامِ

في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ابتدع « النادى الأهلى » في « القاهرة » بدعة جميلة ، تلك هى أن يقيم فى الفينة بعد الفينة حفلات ساهرة ، كنتُ أحرص على شهودها ، ما وَاَتَتْنِ الفرص ، وانفسحتْ لى الأوقات ...

وكانت هذه الحفلات طريقة فى مجتمعنا المصرى ، ونشاطنا الفنى ، بما تزدهى به من مشاهد فى الغناء والتمثيل ، ومختلفة الشكول ... وقليلًا ما كنا نجد فى هذه الحفلات ممثلين أو مغنين محترفين ، فجُلُّ من كانوا يقومون بتلك المشاهد ، هم من كرام الهواة الذين شغفهم الفنّ الجميل حبًّا ...

وأظهر ما كانت تتماز به سهرات « النادى الأهلى » فى ذلك الزمن ، طابع الإيناس الذى يشيع بين النّظارة ، كأنهم أبناء الأسرة الواحدة ، على تفرّق ما بينهم من المناسب والمنازع ...

سُعدتُ بأَمْسِيَّةٍ من تلك الأماسىّ الشادية ، وتبوّأتُ مقعدى فى تلك الردهة التى ليس لها من مظاهر المسرح إلا منصة ساذجة أقيمت فى صدر المكان . ولبثتُ أتتبع المشاهد ، وفى يدى صفحة

البرنامج أقلب فيها النظر بين فترة وفترة .

وأوشك أحد المشاهد أن ينتهى ، فأرسلت النظر فى البَرِّ نامج أستوضحه
ما سيجىء . فقرأت :
« ثلاثى عمر الحيام .

يقوم به « على أفندى المستكاوى » وكريمته «
وأحسست أن ابتسامة عابرة تتخيل على فى ...
« على أفندى المستكاوى » ...

وهل أنساه ؟

إنه ضابطنا فى المدرسة الابتدائية فى رَيق الصبا ...
ولعت فى خاطرى صورة ذلك الضابط الطريف الذى كان يُحيل
جوَّ المدرسة المتحفّظ المتزمت إيناساً ومِراحاً وبهجة ...
كنا نعلم أنه رجل « ابن حظ » وهبه الله جانباً من حسن الصوت ،
وآتاه ذوقاً سليماً فى تأليف المقطوعات الغنائية وتلحينها ...
وكان يتناهى إلى أسماعنا أنه سمير الأصدقاء ، يُحيى لهم حفلاتهم
بالغناء والأفاكية . وكثيراً ما شهدناه قد تخَطَّر فى فناء المدرسة يرسل
ترنماته فى الأفق ...

ولعل أعجب طرائفه أنه كان إذا نادى أسماء المعاقبين من التلاميذ
فى مُنصرفِ النهار ، وقف ينادى كلا منهم فى نعمة خاصة باسمه ،
كأنه يضع لختلف الأسماء مختلفاً من الألحان ، فيثير بين التلاميذ
رُوحَ الطرب فى أخرج الأوقات ، أوقات الحساب والعقاب !

لا عجب إذن أن يكون « على افندى المستكاوى » بطل المشهد
المسمى « ثلاثي عُمر الحيام » ... ولا بد أن يكون مشهداً حافلاً
بالمفاكهة والإطراب .

ما أحبّ إلى نفسي أن أتسم نفحة من نفحات الماضي يَـرِفُ
بها ذلك الضابط الأنيس !

وأحسست حركة على المنصة ، فأشرعتُ عيني ، فطالعتُ على
الفور « على افندى المستكاوى » يقتعد كرسيّاً ، وعن يمينه ويساره
صبيّتان ماثلتان ...

كان يرتدى جُبة ساذجة ، وعلى رأسه عمامة كورّها كما اتفق ،
وهو يحتضن عوداً يداعب أوتاره ...

ولم يكن في المشهد من معالم « عمر الحيام » إلا تلك الجبة والعمامة
إن كانتا من معالهما !

فأما الصبيّتان ، فكانتا في كبوس أبيض ناصع قفصافض ،
يراد به أن يمثل زياً شرقياً قديماً ، وما هو منه في كثير ولا قليل ...
وأول ما راعني من هاتين الصبيّتين قوة الشبه بينهما كأنهما توأمان ،
وذلك الحفَر يكسو وجهيهما الوسيمين اللذين يفصحان عن أصالة
مَنبِت ...

كانت كلاتهما زهرة لما تتفتح عن كَمّها ، تحرص على أن تختزن
عطرها لنفسها ، لا تدعه مستباحاً لكل من يَشْم ...

وشرع العود يخفق بأنغامه الرقاق ، وطفق « المستكاوى افندى »

يساوقه بصوته ، وما هي إلا أن تستجيب له الصبيتان عند كل مقطع ...

وكانت الأغنية تجمع بين لطف المعنى وعدوبة التلحين ، فأما الأصوات فلم تكن تبلغ مستوى الجمال الفني ، ولا سيما صوتُ صديق الضابط القديم ... فقد كان على الرغم مما يبذل من جهدٍ مُثُلَمٍ الصوت ، متقطع الأنفاس ...

على أن المشهد ، في جملته ، لقي استحسان النظارة ، فلم يكده ينتهى حتى تجاوبت أرجاء الردهة بالتصفيق ...

ولا ريب أن ما لقيه المشهد من الاستحسان مَرَدّه إلى تلك الروح اللطيفة التي تسرى في الأغنية ، وإلى ذلك الصفاء الذي كان ينبعث من تَيْنِكَ الصغيرتين ، وهما تشدُّوَان ..

وأعقب هذا المشهد فترة راحة ، وبعد لحظات رأيت « المستكاوى افندى » وقد نضا عنه كبؤس « عمر الحيام » وبدأ في زيه المألوف ، مصطحبا فتاتيه إلى الباب . وكانتا قد نزعتا عنهما اللبوس الأبيض الفضفاض ، وظهرتا في رداء مألوف يأخذ بصرك أول نظرة بمظهره الرخيص ، وتفاهته التي تبلغ أقصى حدٍّ ... حتى إن المرء ليلمح جوارب الفتاتين ، وقد توضححت فيها الفتوق والرتوق ...

ولمحتُ غير بعيد مركبةَ أجرة ، جلس فيها رجل لم يكده يرى الفتاتين حتى تقدّم فأخذهما صاعداً بهما إلى المركبة ، وهو رجل أشيب وقور ، تدل ملامحه وسماته على أنه خادم من أولئك الذين تأنس بهم

البيوت ، وتعدّهم الأسر من أفرادها المكرمين .

أما « المستكاوى افندى » فلم يكد يطمئن إلى أنه ردّ الوديعة ، وأدّى الأمانة ، حتى كثرّ راجعاً إلى المقصف ، يعبّ من الشراب ... وأحرق به جمع من الخلان ، يشيدون ببراعته ، ويهنتونه بما أصاب من توفيق ...

ولما خفّت حدّة الأحاديث في حلقة « المستكاوى افندى » ، وأخذ الجمع يتفرق عنه ، دلفتُ إليه أقدم نفسى ، فهلل وجهه ، وأطبق على يدى يمينى في ترفق ، ثم انطلق يبعث غابر الذكريات في تنادر ومزاح ...

ولم تطل وقفى معه ، إذ انقضت فترة الراحة ، وأوشكت المنصة أن تستقبل المشهد الجديد ...

وكان ابتهاجى بما أرى وما أسمع يخالطه شوبٌ من أسى وضيق ، كلما طالعنى صورة « المستكاوى افندى » وهو فى المقصف بوجهه المحتقن الذى لعبت به التجاعيد، ويده الراعشة التى لاتكاد تضبط الكأس بين الأنامل ، وكبوسه الملقق الصدى الذى تفشت فيه الأوضاع ...

وملتُ على بعض الرفاق أسألم فى شأن ذلك الصديق القديم ، فأنبأونى أنه أعفى من الخدمة لبلوغه السن ، وأنه تحت ثقل أسرة موفورة المطالب ، فهو لذلك يعانى العُسرة ، ويحاول أن يستدرّ الكسب باشتراكه فى بعض المحافل والسوامر ، ولكن إدمانه على الشراب وإفراطه فيه يتحيّفان كسبه ، فلا يزال فى معيشة ضنك .

ولست أدري ماذا أقول ؟ ! أنا الذى انقطعت عن حفلات النادى ، فلم أشهدا ، أم النادى هو الذى ألغى تنظيم هذه الحفلات ؟ .
وأكبر ظنى أن ثلاثة أعوام كاملة قد انقضت بعد ذلك ، دون أن يتناهى إلى سمعى شىء من أنباء « المستكاوى افندى » ودون أن ألمح له وجهاً فى مكان ...

وجاء صيف ، ففررت إلى « الإسكندرية » أصطاف ، وكانت المدينة تَغْصُّ بالمساهر مختلفة الدرجات ، فقصدت ليلة « مسهر المنارة » وهو من المساهر الشعبية التى تتباين فيها المشاهد من تمثيل وغناء ...

وصادفتُ المسهر زآخر الجنبات ، فأقحمتُ نفسى بين الجلاس فى ذلك الجو الخائق العكر ، حيث تخيم على المكان سحائب ثقال من دخان اللفائف ، وصواعد الأنفاس ، وبخار الخمر الغثة ...

وظفقت المشاهد تتعاقب ، ولم يكن ثمة من برنامج مكتوب ، وإنما كان يقوم مقامه رجل هريم من ثفايات المسارح يرتدى لبسة البهليل يزَعق باسم المشهد الذى يجد على المنصة ، ويتخذ فى تصاويحه لهجة المتظرف المتفكه ، ولكنه لا يظفر بغير السُّخْر والاسْتِهْزاء ، فهو برنامج آدمى فاشل ، عزّ عليه التوفيق ...

وانتابنى الضجر ، فأزمت انصرافا ، ولكن البهلول استوقفنى بصيحته قائلاً :

« ثلاثى عُمر الخيام » ...

وسرعان ما وثب في ذاكرتي ذلك المشهد الذى لا أنساه ...
فجعلت أسائل نفسى :
أحقاً ؟

وفى أنا يتنازعنى العجب والحيرة ، رُفعت الستارة عن منظر شرقى مبتذل ، تترأى فى أفقه سماء تبصّ فيها نجوم شواحب ...
ولمحت رجلاً قد جلس على الحشايا يكسوه طيلسان ظاهر البلى ،
وعلى رأسه عمامة ضخمة تكاد تبتلع وجهه ، وعن كُتَب منه عود ،
وما لبث أن نهض يرصد الفلك بمنظار طويل ، ثم أوماً بعض إيماءات مسرحية كأنه يستدنى إليه شيئاً فى السماء ، وما هى إلا أن هبّط المسرح فتابان كأنما توحيان بهريق ثوبيهما أنهما نجمان ..

ومدّ الرجل يده إلى عوده ، وشرع يغنى ، فإذا أنا أسمع تلك الأغنية التى سمعتها فى ردهة « النادى الأهلئ » منذ أعوام ...

وأما الفتاتان فكانتا على الرغم من ثوبيهما الرخيصين تتصوّعان لطفاً وإيناساً . وتبدوان فى زينة هادئة لا تصدّ النظر ، وكانتا فى وقتهما على المسرح يمازج رقهما خفر وحياء : بسماث حيرى ، وإشارات لا تخلو من سداجة ، وسمات صافية بعثت من مراقد ذاكرتى ملامح طيفين شهدتهما بالأمس الدابر على منصة « النادى الأهلئ » ...
وتبع المشهد الغنائى لحن صامت ، كانت فيه الفتاتان تخفقان بأقدامهما على أنغامه فى حركات ساذجة أقرب إلى الرقص الإيقاعى ...
وكانت الفتاتان خلال هذا المشهد البهيج تماثلان زهرتين

نَدِيَّتَيْنِ تَفْتَحَتِ أَكْمامَهُما ، فانبعثت من حوليهما أريج يسرى فينعش
الأنفاس ...

وما إن انفضَّ المشهد حتى ضج المكان بالتصفيق والتهليل ،
فشاعت البسمات عذبة على وجهي الفتاتين ، وهما تردّان تحية النظارة
نمّ عن اغتباطهما بما أحرزتا من إعجاب ...
لم يكن في المشهد كله مما يثير الحفاوة والإقبال إلا شيء واحد ،
ذلك هو وسامة الفتاتين .

كانت فتنة جمالهما ثُلباب ما في المشهد من فنّ يستهوى القلوب !
وأنتى للقلوب ألا تستجيب لهذا الضرب من الفن الرفيع ؟ ...
إنه هبة الطبيعة ، تسخو بها على أناس ، كما تسخو بالعبقريات
المختلفة الضروب على الأفذاذ الخالدين ...
فتنة الجمال !

أنعم بها من جوهر غال نفيس ...
حسبها أن تكون ، فإذا الفن في رِكاها طيَّع ذكول ...
وبعد انقضاء المشهد تركت مقعدي ، لا أحرص على استيفاء
برنامج السهرة ، وحشت خطاى إلى ركن في الردهة ، عن كُتب من
الباب الذى يخرج منه الممثلون . وانزويت أترقب ...
وبعد حين رأيت صديق « المستكاوى افندى » يتنّد في مشيته ،
متأبطاً فتاتيه ، وعلى محيّاہ مسحة زهو واعتزاز بما تملك يمناه ويسراه من
ذخرمين !

وكانت الفتاتان تسيران الرجل ، وهما تتغايدان في مَرَح رقيق ،
وقد اكتست كلتا هما ثوباً رشيماً في سداجته ، يسبق عليها الوداعة
واللطف ...

فأما « المستكاوى افندى » فقد عُنيَ بأبلغ العناية بملبسه ، وتأنق
فيه آيما تأنق ...
ولا أنسى رباط الرقبة المففاهف ، يمس على صدره أحمر
قانياً ...

وأحدقت أعين النظارة بذلك الموكب الصغير ، وشاعت حوله
هوامس التحية ، وتعالَت هواتف الإعجاب ، ولم تملك بعض الأكف
أن تسترسل في تصفيق ...

وكنت ألمح بين أولئك النظارة عيوناً يتمثل فيها الشرّ ، وتعتلج
شهوات الافتراس ، وصافحت أذني بين تلك الهوامس والهواتف
نثاراً من ألفاظ نابية ليس فيها تحفظ ولا احتشام ، تتبعها ضحكات
خلاعة ومجون . فكان « المستكاوى افندى » يستقبل ذلك بوجه مُرَبَّد
عبّوس ، ونظرات ينبعث منها الاستنكار ...

فأما الفتاتان فكانتا تتلقيان تلك الحفاوة الخليعة بابتسامات خجيلة ،
نمّ عن طرب واهتزاز ، حتى إنهما لتسارقان رُوداد المسهر نظرات فيها
تلطفٌ وارتياح ...

وجدت « المستكاوى افندى » في مسيره إلى باب الخروج ، فإذا
مركبة أجرة يجلس فيها ذلك الأشيب الوقور الذي رأيته في مثل هذا

الموقف على باب « النادى الأهلى » قبل سنين ...

ولم يكد « المستكاوى افندى » يُسلمُ إلى الرجل وديعته الغاليتين ،
حتى قفل إلى المقصف يتخطر فى حُلته القشبية ، ورباط رقبته المتلهب
يباريه فى التخطر والازدهاء ، وما أسرع أن أنحى على الشراب يعبه
عباً ...

ووجدتني أجلس غير قريب من مرمى عينيه ، ولا أدري ماذا
عدانى عن التقدم إليه أحياه ، فقد ماكنى خواطرى ، وجعلت
أتصقح فى مخيلتى مرّ الفتاتين بين الجموع ، يحاصرهما من شره
الأحداق نطاق ، وتتساقط عليهما ألفاظ بذاءة وهذر ، فلا تضيق
الفتاتان بشيء من ذلك كله ، كأنما يقع من نفسيهما موقع رضا
واستحسان .

وأحاطت شرذمة من أخلاط النظارة بصديق صريع الشراب ،
يهنونه بتوفيقه ، ويساجلونه الحديث ، فإذا بالرجل يشرب ويتنفخ ،
وتأخذه عزّة الفن ، فيبرى مُفيضاً فى شرح دقائق المشهد الذى
يضطلع ببطولته ، متمعنّاً فى تفسير خوافيه فى التأليف والتلحين والأداء ،
مُشيداً بمجهوده فى تنظيم تلك الحركات الإيقاعية الراقصة ...

وكان يُتبع حديثه بإنشاد فقرات ومقاطع ، ثم لا يلبث أن ينهض
مراقصاً لتصوير حركة أو إيماءة مما ابتدعه فى مشهده الفريد ، فيستجيب
له الجمع متظاهرين بالإعجاب والتصديق ...

واستقبلت الحلقة ثلثة من الشبان الموسيرين الذين هم أحلاس اللهو ،

من تقوم عليهم صروح المساهر ، بما ينفقون فيها من أموال سخية في
 بذخ وتفاخر ... فأخذوا يشتركون في السماع ، ويغدقون الإطراء .
 ولبث الجمع كذلك وقتاً ، ثم انفرط عقدهم رؤيئاً ، حتى لم
 يبقَ على مائدة الشراب إلا صديقي الضابط القديم ...
 وكان برنامج التمثيل قد انقضى ، وولَّيه برنامج المحاصرة ،
 في حلبة الرقص ...

وخلا المكان الذي يحجُب الرجل غنى ، فوقع بصره على ، وبدا
 من نظره أنه لم يحقّقنى ، ثم تلاقت عينانا مرة ثانية ، فألفيتنى ناهضاً
 إليه ، محيئاً إياه ، مقدماً نفسى ، فحيانى تحية مهذبة ، غير متحمس
 في الترحيب ... وكانت عينه تتوهج من أثر الشراب ، وبغته
 قال لى :

يقينى أنك هنا منذ ابتدأت السهرة ...

— نعم ، وإنى أكبر مجهودك العظيم فى مشهدك الرائع ...
 فأخذ يُحدّ بصره فى وجهى ، كأنما يريد أن يستجلى سريرتى
 ليتبين مبلغ قولى من الجدل ...
 ثم قال :

لا بد أنك قطنت إلى ذلك المدخل الذى مهدته للقطعة الغنائية ...
 أقصد رصّد الأفلاك .

— حقاً كان مدخلا شائقاً ...

فلما وثق بى ، واطمأن إلى قولى ، انبرى يشرح لى تفاصيل

المشهد وأسراره ، معيداً ما ألقاه على شذمة النظارة التي أحاطت به منذ قليل ...

ورأيت من الكياسة أن أؤيده في قوله ، وأن أستجيب له بما يزيد طمأنينته ، ولكنني كنت أحسّ - وأنا ألق حديثي - أن لكلماتي طعماً مُراً على لساني ...

وقد طالما أشاد صديقي في محاضراته بما للتلحين وتنظيم الحركات الإيقاعية من أثر في تقويم المشهد وإمداده بالروعة ، كأنما يحاول صديقي بهذه الإشادة والتأكيد لها أن يُلقى في رُوعي أن ما حظي به المشهد من توفيق وإعجاب ، لا مردّ له إلا براعته هو في التلحين والغناء !

وبينما كانت هذه الكلمات يَغصّ بها سمعي ، كنت ألمح طيف الفتاتين يتخايل تُجاهَ عيني ، وهما تبعثان بابتسامة يختلط فيها التهمك بالإشفاق !

وأخيراً نهضتُ مودّعاً صديقي ، فما إن فصلتُ عنه ، حتى أحسست كأنني انطلقت من أسر ، ودفعتُ خطاى إلى الطريق أنتشق الهواء !

وتواصلتُ أيام وأيام ، وكلما لحتُ بي الرغبة في ارتياد مسهر المنارة ، صددتُ النفس عن هواها ، ولكنني في النهاية لم أطق لرغبتى دفعاً ... فيممتُ المسهر أشهد « ثلاثي » عمر الحيام .

ظل المشهد في جوهرة على حاله ، كما كان ، ولكن الحديد في الأمر هو ما أحاط بالمشهد من مظاهر ...

فقد ازدادت الفتاتان ألقاً وازدهاء ، وازداد الجمهور بهما إعجاباً وإغلاء... فما تكاد إحدهما تبدى أقل حركة ، أو تنثني أهون انثناء ، أو تبسط ذراعها أيسر بسط ، حتى يتعالى هتاف الإعجاب ، وتتوالى تحيات المعابثة ، فكانت الغادتان تستجيبان لذلك استجابة مجترى ممرّاح ، وتردّان التحايا في رضا وغباط ...

وفي مُنصرفهما — وهما تشقان الطريق بين النظارة ، يتوسطهما صديق في حلّته الأنيقة ، ورباط رقبته الهفّاف — لاحظتُ ما كانتا ترتديانه من ملابس منقّية يفصح عن مفاتنهما اليانعة .

وما أسرع أن رأيت زُمرة الشبان الموسرين اللاهين تطبق على « ثلاثي عمر الحيام » فتحجبه عن الأنظار...

وما كاد الموكب الصغير يتداني من باب الخروج ، حتى صاح في من أولئك الزُمرة قائلاً « للمستكاوي افندى » :

لقد وعدتُنا أن تجيب أنت والآنستان دعوتنا إياكم إلى العشاء... فبدأ على وجه « المستكاوي افندى » قلق وتردد ، ولكن الزُمرة ما عتمت أن زحمت « الثلاثي المحبوب » فدفعت به صوب المطعم ، وكلتا الفتاتين تحاول أن تستر طربها في منديلها المعطر...

وتبعتُ الركبَ إلى مطعم المسهر ، فاتخذتُ مجلسي على مائدة أرقب من مكانها ما يقع ، دون أن تأخذني العيون...

وحملَ الطعام إلى مائدة الحفل شهياً متعدد الألوان ، معزراً بفاخر الشراب .

وشرع « المستكاوى افندى » يتناول الكأس فى تمهل القانع ،
ثم إذا هويسترسل ، فيعبّ من الشراب بلا حساب !
ونفض أحد أولئك الزمّرة ، وكأسه فى يمينه قائلاً :
فلنشرب على نجاح ثلاثى عمر الخيام ... طرفة الفن ، وآية
الطرب !

وكان وهو يصيح بتلك الدعوة ، يحدّ نظره إلى الغادتين ، فابتسمتا
له ، وضحّ المجلس بالتصايح والتصفيق ...
وضاق بالجمع صدرى ، فلم أطق بقاء حتى أشهد آخر فصول
هذه المهزلة الشعاء ...

وفما أنا متأهب للخروج التقت عيناي بعينى صديق « المستكاوى
افندى » ، فأزاح بصره عنى فى استنكاف ، وأيقنت أنه عرفنى ،
ففضيت مسرع الخطو ، وأقسمت وأنا أغادر عتبة الباب على أنى لا أعود
إلى « مسهر المنارة » أبدا ...

وبعد أيام دعانى صديق كريم إلى عشاء ، وطال عنده سهرى ،
حتى آذن الليل بانتصاف ، فلما تركت بيت الصديق آثرت أن أترجّل
فى طريقى استمتاعا بسكينة الجو وصفاء الهواء .

ولا أدرى كيف ألفتى أمر « بمسهر المنارة » ؟
أقصداً كان ذلك منى ؟ أم هى خطأ تأنه ساقها القدر ؟
وتلاحق على سمعى هدير الضجّة وأنغام « الجاز » المعربة المتمردة ،
كأنما هى ريح عاصفة تلتفى فى تدويمها ... فإذا بى تتقل خطاى ،

ووجدتني أخلى سمعى لهذه الأصوات ، كأنى أنتخلها لألتبس فيها
صوتاً يعينى ، وما لبثتُ أن سمعت صائحاً يقول فى احتياج :
فلنشرب على نجاح « ثلاثى عمر الحيام » !

وتقارعت الكؤوس ، وتجاوبت الصيحات ، تتوضح بينها
ضحكات نسوية رقاق !

فأمددتُ قدّمى بعزم ينجبني من تلك العاصفة النكراء .
وأخذتُ عيني مركبة الأجرة ، ماثلة بباب المسرح ، وعلى سلمها
ذلك الأشيب الهرم قد تجمع ، ورأسه يُهوّم ، وسماته تنطق بالملالة
والسأم .

وقطعت فى السير شوطاً ، وبغطة ثارت بي الرغبة فى العود ، وما
هى إلا أن كنتُ عن كُتب من باب « مسهر المنارة » ...

وظهرت ثلة الشبان يُحدقون « بالثلاثى المحبوب » فى صحب وطرب ،
وتقدم « المستكاوى افندى » من مركبة الأجرة ، فأسلم فتاتيه إلى
الأشيب الهرم ، فانطلقت المركبة لغايتها ، وتقوّض الجمع ،
وهم « المستكاوى افندى » أن يلج الباب ، قاصداً إلى الحان ، ولكنه
فى هذه اللحظة لمحنى ، فوقف يحدّجنى ببصره ، فأنكرت أنى أراه ،
وخطوتُ خطأ سِراعاً فى الطريق ، ولكنه صاح بي ينادينى فى صوت
متحشرج ، ولحق بي يحدّ قدميه ما وسعه أن يحدّ ، فاضطرّرتُ
أن أرجع إليه ، محييا إياه ، فلم يردّ تحيتى ، بل وقف يبعث إلى
نظرات صارمة ، ثم صرخ :

لماذا تتجسس علىّ ؟

— أنا ؟ !

— نعم ، أنت ... لا تُنكر ... إنك تحاول أن تتعرف دخائل

شئونى ... ماذا تعيب من سلوكى ؟

— لا أعيب منك شيئاً ... لاشئ !

— كذاب ... كذاب وحق السماء !

وأخذ يبدى يهزئى جياش الأعصاب ، وهو يقول :

لك أن تقول علىّ ما شئت ... لا يعينى منك قليل ولا كثير ...

لك أن تشيع عنى أنى مهرج ، سكير ... ولكن أنفق من مال أحد ؟

إن المهرج الذى لا يروكك يكسب قوته بعرق جبينه ، من أشرف

طريق !

— مهلك يا سيدى مهلك ... إنك ترمينى بما أنا منه براء ...

ماذا أستطيع أن أقول فىك ؟ وأى شئ أشعته عنك ؟

— إنى على بيّنة مما يحول فى خاطرك ... أتظننى بليد الفهم ؟

إنى أتصيّد الأفكار وهى طائرة ... الفن الرخيص الذى تزعم أنى أعرضه

هو فن رفيع ليس فى طوق أمثالك أن يحسن تذوقه ... إنى أضرب

بما يقوله الناس عرض الحائط ... الفنان يعرف قدر نفسه ، ولا يبيع

سمعه لأحد ... لك أن ترى رأيك فىّ كما شئت ، ولكن إياك أن

تتجاوز هذا الحد ... فحذار أن تستطيل بك الجراة إلى المساس بكرامة

ابنتى هاتين ... فأما إن حدثتك نفسك بهذا الإثم ، فإنى باطش بك !

ورفع يده يلوح بقبضتها في الهواء ، ولكنه ما لبث أن اختل توازنه ، وأوشك أن يتداعى ، فأسرعت إليه أقيله من عثرته ، وهو ما برح يهدر محاولاً أن ينحى نفسه عنى ، كأنه يأبى أن أكون له عوناً ...

وأقبل بعض عمال المسهر يأخذون به ، ولم يستطع أن يتمالك ، فتعاوناً جميعاً على حمله إلى مركبة أجرة ، فما إن استقرّ فيها حتى أشار إلى العمال أن يدعوه وشأنه ، لا يرافقه منهم أحد ...

وجرّجت المركبة خطاها ، ينازع صوت حركتها صياح « المستكاوى افندى » وهو يمجّد شرف ابتتيه ، ويعلو بهما عن أضرار القليل والقال ...

وقصدتُ بيتى تغتالى مضاضة ، ولا تبرح رأسى أخيلة ما وقع الليلة على باب « مسهر المنارة » ...

وكانت هذه الليلة آخر عهدي به ، فما طرقته بعد ، ولا دنوتُ من مكانه ، ولكن أخبار « ثلاثى عمر الحيام » كانت تلاحقنى كرهًا . فلم تكن تخلو صحيفة من إعلان عن ذلك المشهد ، أو حديث فى شأنه ، أو إشادة بتوفيقه ...

لقد انتقل « الثلاثى المحبوب » من « مسهر المنارة » المتواضع إلى مساهر آخر أعزّ مقاماً ، حتى تسّم مكانة مرموقة فى « مسهر التزهة » أرقى ملاهى المصيف ...

وحاصرتنى صور الفتاتين فى الصحف ، مختلفات الأوضاع ،

يتصوّع من مفاتنهما أريج السّحر ، وتتوقّد في عيونهما نزعة الغواية والإغراء . وكلما لمحت هذه الصور طالعتني على الفور طيف وجهين على منصة « النادى الأهلى » ينقلان نظراتهما البريئة على استحياء ! وتعاقت الأيام أكثر من عام ...

وُدعيت إلى حفل في « فندق شبرد » تقيمه هيئة اجتماعية لها خطر ... وضمّ الحفل صفوة الكبراء ، ونخبة السراة ، ممن تلتهم شخصياتهم في مختلف النواحي والبيئات .

وبعد أن أُلقيتُ خطب تناسب المقام دُعينا إلى العشاء . فأبصرنا الموائد حلقة في بُهرتها معرض لمشاهد مسلية من الرقص والغناء، وُوزع علينا البرنامج ، فقرأتُ في سطره الأخير :

« ثلاثى عمر الخيام »

وانتظرتُ على أحرّ من الجمر أن أرى صديقى وفتاتيه بعد غيبة طال مداها ...

ولما حان ظهور « الثلاثى المحبوب » أظلم المكان ، ثم انصبت الأضواء بغتة على بُهرّة الحلقة ، مختلفا ألوانها ... وبدأ « الثلاثى » في المعرض يتخطر ، فانبعثت من الأكف عاصفة من التصفيق ... ولا أخفى أن هذا المشهد قد بهر عيني حقاً بتلك الأزياء الفاخرة ، والحلى الألاقّة ، وذلك الترف الواضح في كل ما تقع عليه العين ... ولكن كل هذه المباهج كانت تتضاءل وتتصاغر إزاء تلك البسمات التى يفرّ عنها ثغر الغادتين ، متوهجة بفتنة الأنوثة ، تنسكب صهاؤها

متقدمة حرّى ، لو شرب قطرة منها « عمر الخيام » فى صوفيّته لأوحت
إليه أن ينظم قلائد تُزرى بربايعيّاته ، وتجرب عليها ذيل العفاء ! ...
وراعنى أن المشهد قد خلص من عنصر الغناء ، وطغت الموسيقى
والرقص الإيقاعى على المشهد كله ، فلم تدع لسواهما مقاما فيه ...
ولكن أىّ موسيقى وأىّ رقص إيقاعى أسمع وأرى ؟

حسب الفتاتين أن تبتدّ عنهما انثناء عطف ، أو التواء
خصر ، أو اهتزازة قد ، أو اختلاجة نهد ، أو انبساطة ساق ، فى ذلك الموج
من الأضواء الملوّنة ، حتى تسرى نفثات السحر فتملاً شعاب القلب
من نشوة وإمتاع ...

وحدث ما شئت عما لقي المشهد من ترحاب وإعجاب ، وما
ودّع به من هُتاف وتصفيق ...

وبعد حين رأيت صديقى « المستكاوى افندى » فى حلة السهرة
السوداء ، متألّقا يقصد منضدة تحفل بزمرة من علية القوم ، وما لبثوا
أن تقارعت أيديهم بمتراعات الكؤوس ...

وأما الغادتان فقد ازدانت بهما منضدة الصدارة ، حيث يجلس
الداعى وكبراء المدعويين ... وكانت الغادتان فى أتم زينة وأبهى حُلل
وحلى ، تتوالى عليهما ألوان الحفاوة من كل جانب . وما أسرع أن
تجمعت حول هذه المنضدة فرقة المصورين كسرب من النحل يتفنن
فى اقتطاف ما يطيب له من نَضرة هاتين الزهرتين العطريتين ...
وانطلقت قذائف الأنوار من يد هؤلاء المصورين تتصيد مختلف الأوضاع ،

على حين تنبعث من جمع الحاضرين لطائف النكات والضحكات !
وصدّرتُ عن الحفل أسير راجلاً في الطريق ... عارضاً في مخيلتي
تلك المشاهد التي مرّت بي الليلة .

وأطلقتُ العنان لفكرى يلحق في هذا المجتمع الصاحب ، موازناً
بين ما فيه من زيف وجوهر ، وباطل وحق ، متسائلاً :

أىّ العوامل هى التى تتيح النجاح وتؤثّق الفوز في هذه الحياة ؟
وعلى أىّ أساس يُصنّد المجتمع أحكامه على سلوك الناس ومصاييرهم
وتقلّبهم في مراتب الأخلاق ؟

وزممتُ الأفكار ، واختلفت بي السبل ، واختلطت على القِيَمُ ،
فلم أعد أستطيع تمييزاً ولا وزناً ولا تفرقة بين صلاح وفساد ، أو زيف
وسداد !

وفيما أنا تستغرقى هذه الحيرة ، إذا بسيارة فخمة رائعة تتهدى
جوارى ، فتطلعت إليها ، فرأيتُ فيها أفذاذاً من ذوى المقامات الكريمة ،
يتوسطهم في عزة وُخْيلاء ، وفي ترف وازدهاء ، ذلك الثلاثى العظيم ...
« ثلاثى عمر الخيام » !

ابنة إيزيس

دخل المثلال رَدْهُة منزله ، فى لمة من رفاقه ، متجهاً بهم إلى مكان تمثاله الحديد « ابنة الربّة إيزيس » ، ذلك الذى أتمّ نحتّه منذ قليل ... وكان صديقه كبير الكهنة قد علم بهذا التمثال الفاخر ، فأعدّ له فى الهيكل الأعظم أكرم مقام .

أما هذا المثلال فهو فى زهرة العمر ، وقد حلّى كثيراً من الهياكل بالبارع من تماثيله ، وعلى الرغم مما ذاع من شهرته ، وما بلغ من مكانته ، فإنه يلمح الذروة التى يتطلع إليها بين عباقرة الفن بعيدة المثلال ... وإنه الآن إذ يزهو بتمثاله الحديد ، ليشعر بأن ذلك التمثال جدير أن يتسّم به تلك الذروة ، فتكون له الصدارة بين الخالدين من بُناة التماثيل .

والرجل يقضى حياته فى صحبة زوجة وفية أخلصت لبيتها الإخلاص كله ، ووفرت لزوجها وسائل الطمأنينة والإسعاد . وإن له منها طفلة توشك أن تستكمل عامها الخامس ، ولكن هذه الزوجة على ما تبدّل من جهد لا تسلم من لوم الرجل وتعنيفه ، فهو دائب على الانتقاص من قدرها ، حريص على الزاوية بها ، يأخذ عليها دائماً أنها فى غفلة عما

هو فيه من حياة فنية ، ويرى أنها لا تتذوق من الفن ما يتذوق ، ولا تشاركه في تلك السبّحات الرفيعة في آفاق الروح ، فليس بينهما في هذا المجال من تجاوب أو نجوى .

ولقد يذهب الرجل في تجنيّه على الزوجة كل مذهب ، فيرميها بأنها تعكر عليه صفو خلوته إلى عمله ، وأنها كثيراً ما تخدش السكينة التي يأنس إلى ظلها في ساعات الإلهام ، ولها من طفلها المدللة الشغوب عون أى عون على إثارة القلق والاضطراب ...

وطالما صاح الرجل بزوجه في نوبات غضبه ، قائلاً :
ما دمت لي زوجا ، فلا أمل لي في أن أكون فناناً عبقرياً ، فإنك لتفرضين طريقى بأشتات العوائق والعقبات ...

إلا أن الرجل اعتقد منذ فرغ من نحت ذلك التمثال الحديد « ابنة الربة إيزيس » أنه قد صنع معجزة الفن التي تيسر له منزلة الخلود ... فلا غرو أن يزهو وأن يفخر وأن يدعو رفاقه إلى المنزل يشهدون فنه في أوجهِه الرفيع !

وأقبل الرجل في أصحابه على التمثال ، وكان في صدر البهو ، مسبلةً عليه غلالة . وطفق التمثال يتحدث في شأن تمثاله ، كأنما يهيم أذهان الرفاق لاستقباله ، ويسر لهم تذوق ما فيه من روائع الفن وبدائع الجمال ...

وما إن اطمأن إلى أنه أوفى من ذلك على الغاية ، حتى أخذ يميّط الغلالة عن التمثال ، فانتظمت الجمع هزة إكبار وإعجاب ، وجعلوا

يهيمون بألفاظ التمدح والإطراء . فاشتعل المثال حمية ، وانتفضت منه
المشاعر ، فتدفق في التحدث عن تمثاله ، مشيراً إلى أوصاله وشيائه ،
مُفيضاً في التعجب مما تتميز به من روعة واقتنان ...

وفيما هو مستغرق في الحديث لا يحفّ له ريق ، إذ تراءت طفلة
انفجرت عنها إحدى الستائر ، وقد تسالت في خطا حذرة ، وهي تنقل
النظر في البهو ومن فيه ...

لقد ترمى إلى سمعها صوت أبيها يشقشق بالحديث عن التمثال ،
فقدمت تستطلع الأمر ، وقد وقع في وهمها أن أباه يقص قصة طريفة ،
فأرادت أن تستمع إليها في غفلة من عين أمها ، فلقد حذرتها أمها
أن تخرج إلى أبيها في تلك الساعة التي تشغله عن كل شيء ...
ورأت الفتاة حول أبيها ذلك الجمع المائل وقد أنصت له كل الإنصات ،
فأذكى ذلك من فضولها ، فواصلت سيرها وثيدة الخطا ، وعيناها
السوداوان النجلاوان تلتمعان بشراً وارتياحاً ، ويداهما معقودتان خلف
ظهرها دلالة واختيالاً ...

وكان أن انحرف بصر واحد من الرفاق ، فلمح الطفلة آتية ،
فاستغرب الأمر بادئ بدء ، وعجب لتلك الطفلة : كيف يؤذَن لها أن
تقتحم ذلك المحراب الفنى الذى لا تعرف له كنها ؟
وخشى أن يكون من الطفلة ما يثير استياء أبيها في تلك الساعة ،

وهو يعهدّ منه سرعة الغضب في مثل هذا الموقف ، فسلب نفسه من بين الجمع ، وعجل إلى الطفلة ، فإذا به أمام وجه أميل إلى السمرة ، جذاب الملامح ، ذى عينين دعجاوين ، وشعر فاحم موج ... فانحنى يمسك بيدها ، ويحاول أن ينحو بها نحو باب الخروج ، وهو يسرّ إليها قوله :

يحسُن بك أن تعودى إلى أمك ... إنها تدعوك !

فلبتّ تحديق فيه بهاتين العينين اللتين تأتلقان ذكاء وحيوية ، وقالت فى لُشغة محبّبة ، وهى تتمهل فى الكلام ، كأنها تزن ألفاظها وزناً :
أمى ليست فى حاجة إلى !

واهتر الرجل لتلك اللهجة المترنة ، وذلك النغم الأغنى . فلم يملك أن ابتسم ، فاستجابت له الطفلة بابتسامة حلوة كشفت عن أسنان لؤلؤية منضّدة ، وأخذ الرجل يلاطف يدها قائلاً :

إن أمك لا شك فى حاجة إليك ، وهى الآن تبحث عنك ولا تجدك ، فهلمّى إليها ...

فقال له الطفلة وهى على حالها تحديق فيه :

أمى فى المَطْهَى تُعدّ الطعام !

والنّى الرجل نفسه رانياً إليها ، يتملى فتنة حيّاها ، ثم همهم خافض الصوت :
ولكن يا صغيرتى عليك أن تعودى ...

وخطا آخذاً بيدها إلى الباب ، فازورّت به عن الطريق ،

واستدارت تقول :

لماذا لا تريدني أن أصغى إلى تلك القصة اللطيفة التي يحكيها أبى ؟
 فاستفاضت على وجه الرجل ابتسامة رقراقة ، وشاعت بين جوانحه
 بهجة جياشة ، وقال وهو يعانى أن يخاف بصوته :
 حقاً إنها قصة لطيفة ، ولكن ألا ترينَ هذا الجمع الزاحم ؟ إنه
 يعوقك أن تسمعى شيئاً !

فتشبثت بيده ، وقالت وهى تحاكيه فى همهمته ، والخافتة بصوته :
 إذن احكها لى أنت !

وإذا الرجل يجد نفسه قد حمل الطفلة بين ذراعيه ، وهو يتوسمها
 حيناً ، فتقبل هى على خدّه تلقى عليه قبلة من ذلك النوع الغُفل ...
 قبلة كأنها الزهرة فى كيمّتها لم تنضج بعد عطرها الفواح ... ثم قالت
 فى إلحاف :

احكها لى ... احكها لى ...

ففضى الرجل بالطفلة خفيف الخطو ، وانتبذ بها ناحية ، وجلس
 على متكأ ، وأراح الطفلة على ركبته ، وطفق يحكى لها أقصوصة من
 صيّد خياله ، وهى شديدة الإصغاء إليه ، يلوح على محيّاها كبير
 اهتمام ...

وظلت تتابع حديث الرجل ، معبّرة بملاحمها وإشاراتها عما تسمع من
 مشاهد الأقصوصة الساذجة ...

وطالما قطعت حديث الرجل تحاوره فى منطق هين لين ، ولا تلبث
 أن تدعوه إلى استئناف الحديث ...

وكان الأب المثال ماضياً في عُجب وازدهاء يشرح لرفاقه روعة الفن مصورة في تمثاله الفذ ...

وشاعت في الردهة سارية من الجهامة والترمت ، حتى لتحسب أن ثمة سحبا جعلت تتعقد في أفق الحجرة ، فتلقى على المكان غشاوة من قَتَام ...

وما كان ذلك الفنان في لهجته المتحفظة ، ومنطقه المعقد ، المطوى على الأحاجي ، إلا كمثل كاهن متخشع يثقله التزمت ، وقد استرسل في مواعظه الجافية المملولة ... والرفاق من حوله ، تبدو على وجوههم علائم المضض والكلال ، ملقين أسماعهم إليه على اضطرار ، وإن لم يفهموا الكثير مما يبلغ الأسماع ...

فأما التحفة الماثلة « ابنة الربة إيزيس » تلك القطعة الفنية التي تمثل الطفولة الزكية ، فقد تراءت حيال الجمع كدراء مغضنة الوجه كابية ، وكأنما قد تكاثفت عليها أنفاس ذلك الفنان العبوس ، فغاضت نصرتها الفتية ، وزهبت بشاشتها الصافية ، واستحالت عجوزاً أوقرتها السنون ! وبدت من أحد الرفاق لفظة غير واعية ، كأنه استشعر الحاجة إلى أن يريح بصره مما يرى تجاهه ، فوقعت عينه على رفيقه قد خلا بتلك الصغيرة في ناحية من الردهة يتناجيان . فرأى قدميه تخفان به إلى ذلك الركن القصي ، وما هي إلا أن اشترك مع الصغيرة في ملاطفة وحوار ... وما أسرع أن انتعشت رُوحه بسحر تلك الفتنة الوداعة ، فتنة الطفولة في أبهى حلاها ، وأروع خصائصها .

وما لبث هذا الثالوث الصغير أن اجتذب إليه من الرفاق واحداً بعد واحد ، وكانت الطفلة واسطة العقد في هذا الجمع ، تشع فيه الأنس والبشر والميراح ...

وما زال الرفاق حول الصغيرة يتنافسون في اجتلاب بسماتها ، وانتهاج قبلايتها ، حتى احتوى هذا المجلس سائر الرفاق ، فلم يبق هنالك حول التمثال إلا ذلك الفنان العبوس في غمرة من أحاديثه الغامضة ، وأحاجيه الملتبسة ، يتناول بها أسرار الفن والجمال ، لم يشعر بانفراط الرفاق من حوله ، وانفضاضهم عنه ، فقد كان ضباب العتمة والوحشة يغشى عينيهِ ، ويُطبق عليه ، على حين كان الركن القصي ، ركن الطفلة ومن اجتمع حولها من الرفاق ، قد أضاء بنور علويّ وضّاح السنا ، وكأن « إيزيس » نفسها هي التي أشعت ذلك النور على تلك الطفلة ، فأحس الرفاق كأنما هم أمام ابنة الرّبة الحقّة قد تجسّدت في ذلك الكائن الإنسيّ اللطيف ، وكأنما هذه الطفلة قد خرجت بهم من عالم الوحشة والظلمة إلى عالم من الطلاقة والنضارة والإشراق ...

ها هم أولاء يحسّون لها نشوة الحب الصادق ، بل ما هو فوق الحب ... إنهم يحسّون لها روح التعبد ، ولكنه ليس التعبد في هيكل معتم موحش تتلاطم فيه أشباح البخور المفزعة ، وتنوح التراتيل المكروبة ... إنه تعبدٌ بروح الطبيعة الطروب ، فهم بين يدي « ابنة إيزيس » الحقّة تتوقد حيوية ، فتبعث في نفوسهم دفء الحياة ، وتهبهم قبساً من شعلتها المقدسة ...

ليسوا هم الآن حيال تمثال قُدَّ من صخر، مهما يتفنن صانعه في
نحته ، فإنه يحاول عبثاً أن ييث فيه ومُنْصَة من نور ساطع ينبعث من
ذلك التمثال الحى ...

لا ريبَ عندهم الآن أنهم يتعبدون على خير وجه ، وأهدى طريق...
فهم يروَن أنفسهم قد ظفروا بجوهر التعبد ، ذلك التجاوب الروحى ،
والتمازج الصميم ، بين العابد والمعبود ... ذلك الحب الساذج يخفق به
القلب مستشعراً متاع الحياة الصريح ، غير مشوب بخشية أو ترهيب ...
ذلك التطلع إلى وجه الإله ، دون فروض أو قيود أو رسوم ... ذلك
الارتواء من نبع علوى عذب الفيض يسير المثل !

كانت « ابنة إيزيس » الطروب الممراح بين أيديهم يتوسَّمونها
ويطارحونها ألوان المطايات والأفاكية ، فيرون فيها أروع مثال للفن
العبرى ، الفن الذى تحسَّ الفطرة جماله ، وتتذوق متعته ، دون تعريف
أو إيضاح ... الفن الذى لم ينحته لإزميل ، ولم يعمل فى تسويته مِرْقم ،
ولم تتكلف التألق فيه أنامل صانع من البشر ... إنه نعمة الطبيعة
الحسنى ، ومنحتها الطيبة ، سخت بها عفوَ الخاطر ، لا تصنع ولا
معاناة !

وظلَّ الأبُّ الفنان بجانب تمثاله الصخرى وحده ، وهو مسترسل فى
مشقشقته ، فلما فطن إلى أنه خال بنفسه ، يتحدث إليها ، تلفت حائراً
يفتقد الرفاق ، فلمحهم فى أقصى الردهة ملتفتين حول ابنته الصغيرة
يتناوبون حملها بين أكفهم ، ويجاذبونها أطراف الحديث ...

فهبت بين جوانحه عاصفة من الغضب ، وهمّ أن يخطو إلى الجمع
 يعلن إليهم استنكاره ، ولكن عينه التقت بتمثاله ، ففطن أول مرة إلى
 أن به شيئاً غير مألوف ، فأخذ يحدّ النظر فيه ، ثم عدل ببصره إلى
 طفلته فرأى عينها الدعجاوين تُفيضان السنا ، وابتسامها الرفافة تُشيع
 البهجة والإيناس ...

واستأنف النظر إلى تمثاله ...

أُمةَ جهامة تغشى عيني التمثال ؟

أُمةَ جفوة تتمثل في الشفتين ؟

وهل تكون « ابنة إيزيس » جهمة جافية ؟

كيف سولت له نفسه أن ينحيت التمثال عبوساً جافى القسمات ؟
 وجعل ينقل بصره بين الطفلة الجياشة الممراح وبين الطفلة الصلدة
 العبوس ، وليث كذلك وقتاً ، حتى أحس الغضب يتلهب بين جوانحه ،
 الغضب على نفسه وعلى تمثاله جميعاً !

لقد جاد فنه في هذا التمثال ، حتى أصبح في عينه تحفته الخالدة ،
 وإنه الساعة ليتبين تفاهة هذا الأثر الذى بلغ به أوج الفن ! ...
 فكيف إذن تكون نظرتة إلى سائر تماثيله التى تفاوتت تقديره لها من
 قبل ؟

وأخذت الغشاوة تنقشع عن عينيه ، وإذا هو قد انتفض انتفاضة

تزايدت بها كبرياؤه واعتزازه ، وشعر بوطأة الخيبة وثقل الهزيمة ، فهاوى
على مقعد قريب منه ، وقد انعكس رأسه ، وانطبق جفناه ، وتدلّت
يداه ... وانساب به الفكر في ظلمات يأس وقنوط !

وأنبهته أناملُ رقاق تداعب كتفه ، فرفع رأسه ينظر ، فألقى طفلته
بجانبيه تبسم له على تخوّف وحذر ... فهم أن ينحيا عنه ، ولكنها
عاجلته تتعلق برقبتة ، وتقول له في رجاء ، وهي تشير إلى التمثال :
أبي ... أبي ... قصص على قصة هذه الدمية ... إنها بهية الطلعة !
فألقي نفسه يقول لها من فوره :
أتروقك ؟

— غاية في الجمال !

فنهض الرجل بطفلته ، وأدناها من تمثال « ابنة إيزيس » فلم تلبث
أن أقبلت على التمثال تقبل محياه في بهجة وفرح ، فأحس الأب طارئاً
من النشوة يسرى في أوصاله ، وإذا هو يضم طفلته إلى صدره مهتاج
النفس ، وإذا هو يطبع على جبينها قبلة جياشة ! ...

عِنْدَمَا تَصْحَكُ الْاِفْتِدَارُ

جلس إليه صديقه في مشرب من المشارب المعروفة ، يناقله الحديث في شئون الزواج ، وقد رفرفت حولها أنسام الأصيل ...
وكان هو بَرِّمًا بحياته الزوجية ، يشرح لصديقه ما يعاينه من متاعبها ، على الرغم من أنه حديث عهد بعُرس ...
فانطلق يقول :

لقد حسِبتُ شهر العسل مديد الأمد ، فإذا هو متضائل منكش
قصير العمر ، وما أسرع أن بدأنا عهد مناوأة وعناد ... إن الحياة
يا صديقي لأقصرُ من أن تتسع لهذه المناكدات ، ولذلك أجمعنا أمرًا
نضع به حدًّا لما نكابده... ما أعجبها نهاية عاجلة لم تقع لي في حِسبان! ...
وأشعل الزوج المتذمر لفافته ، وأشرعَ نظراته في الأفق ، كأنما
يطلب إلى السماء تخفيف ما به ...

وانبعثت صدحات موسيقية رفيقة تتودد إلى الأسماع ، وكان نغمها
شجيًّا تستنيم له الأعصاب ، وتستيقظ الأحلام ... فلبث الرفيقان وقتًا
يستعذبان تلك الأنغام الرقاق !

وتنهذ الزوج من أعماق صدره ، وهو يصل ما انقطع من حديثه ،

في صوت تشيع فيه الرخاوة ... قال :

أتعلم كيف عرفتها ؟

إنها لمصادفة عابرة كان لها في حياتي أبلغ الأثر ، ومن عجب أنه كلما خطرت ببالي ذكرى هذه المصادفة أهدتني إلى "جديداً من المتاع ... كان ذلك على شاطئ " سيدى بشر " ...

وكنت في لمة من الصحاب نسبح ، ونستمرئ مداعبة الأمواج ... وبغته دوت صرخة استغاثة ، فرأيت الشاطئ قد تراكت عليه جموع الناس مهتاجين يحدقون في الماء ...

وسرعان ما ظهر قارب النجاة يسوسه ذلك البحار المعهود ، في قميصه المخطط ، وسراويله القصيرة الدكناء ، تهدل على جوانب وجهه قبعته البيضاء ...

وتلفت أنظر حيث ينظر الجمع ، فلمحت على البعد رأساً لا يكاد يطفو حتى يطويه الموج ...

وألقيتني أسبح من فوري ، قاصداً إليه ، دون أن يكون ذلك وليد عزم أو تفكير ...

إنها خطفة من خطفات الشعور ، تريد المرء على الاضطلاع بعمل جسيم ، دون حساب لعقبى ، أو تقدير لما يكون ...

كنت آنئذ كتلة من الأعصاب ، أندفع في تهوّر للحاق بذلك الرأس الذى يصارع الموت ...

ووجدتني أسبق القارب ، وكلما دنوتُ من مكان الرأس ، ازدادت من حميةً وحماس ، فلقد كنت أحس أن أنظار الجموع على الشاطئ ترقب ما أنا مقدم عليه ...

واقتربتُ من المكان المقصود ، فإذا الرأس يغشاه الموج ، وتنتشر على صفحة الماء نُخَصَلَات من الشعر كأنما هي دماء قائمة مسفوحة ... وغاب عن عيني في لحظة كل شيء ... وشعرتُ بأني أتهاوى بين طباق الماء ، أتلمس ذلك الغريق الذي تعلق مصيره بجهدي .

وما كنتُ أرى شيئاً ... فقد تخبّطتُ في بطن الموج ، أضرب بيدي على غير هدى . وفجأةً وجدتني أرتطم بجسد ، وأحسستُ على الفور يدين تشبثان بعنقي في قوة وعنق . ولا أدري أىّ جهد واتاني حتى استطعت أن أجتاز غائلة الموج ، دون أن يجتذبنى التيار بمن أحمل إلى القاع !

طفوتُ على سطح الماء ، وما زال الجسد متعلقاً بي ... وشاهدت من خلال غشاوة الماء التي تُغلف عيني شبح القارب يتوسطه ذلك القميص المخطط والسراويل الدكناء ، وهو يصيح بي أن أعجلْ - إليه ، فلم أعره جانب اهتمام ... وكيف لهذا البحار الفضول أن ينازعني ما غنيمته من فوز ، ويقاسمني دون حقّ ما بذلتُ من مجهود ؟ !

ظلمت في طريق أشقّ العباب ، وأنا أحمل ذلك الغريق ، وكنت أحس رأسه ملقى على صدري ، وشعره الفاحم الغزير يُناوش عنقي ... ولا أذكرُ أني تبينتُ من قسمات الوجه شيئاً . وقصّارَى ما لاح لي

منه أنه وجه ممتنع ، لا تنبعث منه أنفاس ...
 وكانت صيحات البحار الفضولى تلاحقنى ، وضربات المجذاف
 تبعث خفقها إلى أذنى ، فألهب ذلك من شعورى ، وأمدتني بقوة أستعينها
 على الانطلاق ...

لن أفلت هذه الفتاة التى ألفت المقادير شبابها ونضارتها بين يدي ...
 لقد آمنت منذ اللحظة الأولى بأن مصيرها قد ارتبط بمصيرى ،
 وأنها قد أصبحت لى أنا وحدى !

وبلغت الشاطئ ، فصعدت إلى اليابسة ، وأنا أحمل كثرى الثمين
 أشق به الزحام ، ومن حوالى يتعالى الهتاف !

وأشعل الزوج لفافة ثانية ، وزفر زفرة حررى ، ثم استأنف يقول :
 ما يسوغ لى أن أنكر ما أسدته إلى هذه الفتاة من جميل ...
 تلك النشوة الفريدة فى حياتى ، بل فى حياة الأقلين من البشر ...
 ذلك الشعور النادر من الفوز والانتصار ...

ذلك الزهو الرفيع الذى يرنح أعطاف من أنقذ حياة إنسان !
 ولم تنقضى أيام حتى كنت للفتاة خاطباً ، ثم أصبحت لها زوجاً ...
 وشملتنا غفوة من غفوات الأحلام ، نعيمنا فيها بأفانين من مباحج الحب
 ومناعمه الحسان !

ونفض الزوج لفافته على طرف المنضدة ، وجعل يعبث بما تناثر
 من الرماد ، وهو يردد نظرات أسف وتحسر ، ثم نفخ فيه نفخة أسلمته
 للريح ... وهمهم :

لقد تطاير كل شيء كما تطاير الآنَ هذا الرماد ... لم يكن من ذلك بدءاً ...

لست أدري كيف أفضي بنا المساق إلى هذه القطيعة ؟
 قصارى ما انكشف لي أننا كنا على غير تألف ، أو على طرفي نقيض ...

ما اتصل بيننا شيء إلا كان مثارَ تنازع واختلاف !
 وأرسل الزوج المنكودُ ضحكة عصبية ، وواصل قوله :
 بل إن أمراً واحداً لم نختلف عليه ... ذلك هو الفراق !
 على هذا الفراق اتفقنا ، في خلوة شملتها السكينة والصراحة والإخلاص ...

ولقد كان اتفاقاً كاملاً تفاهمنا فيه على « مستقبل الجنين » ...
 فسأل الصديق ، وقد اتسعت حدقاته :
 أحامل هي ؟

— أحدثُ ما علمتُ أنها مُوشكة أن تضع ... إن هي إلا أيام ...
 — وهل تتزاوران ؟
 — لم أرها منذ أشهر ...

وأمسك الصديقان عن الكلام .
 ثم بدأ الزوج يقول :

إنها تطلب الاحتفاظ بالطفل . فلتكن لها مشيتها ، وسأضطلع بكل ما تتطلبه الحال من إنفاق ... في سبيل الراحة تهون الصعاب ! ...

لستُ بمضمر لها حقدا ولا ضغينة ، وما أضنّ عليها ببذل ما يستوفى لها
الطمأنينة ورفاهة البال ...

وأقبل في هذه اللحظة رسول إلى الزوج ، فتداني من أذنه ، وهمس
له بكلمات أثارت في وجهه علائم الاضطراب ، ولكنه سرعان ما تمالك ...
وهمهم : لا بأس ... ليس في الأمر ما يهيم !
وترايل شبح الرسول ، وجعل الزوج ينقرُّ المنضدة بأصابعه نقرات
تفصح عما يختلج في حنايا صدره من قلق .

ثم التفت إلى صديقه قائلا في ضحكة عابثة :
هم يبلغونني أنها تضع ... أو حسبوني طيباً يدعى في هذه المناسبة؟!
فواجهه الصديق قائلا في لهجة رزينة :
إنك الزوج على أية حال !

فصاح في صوت متهدج يقول :

أندعوني زوجاً بعد أن تقطعت بيني وبينها الأسباب ؟
فقال الصديق هادئ الصوت ، رقيق النبرات :
إن الزوجية بينكما في هدنة ... لستُ بفارض عليك شيئاً ... لك
أن تسلك الطريق الذي تهوى ... لو كنت مكانك ...
فقاطعه الزوج قائلا :

لكنتُ الآن بجوار سريرها تحمل عنها بعض ما تعانیه ! ... أليس

كذلك ؟ !

— حقاً إنك لإنسان غريب الأطوار ...

— أى غرابية رابتك منى ؟

فلاطف الصديق كتف الزوج قائلاً :

إن أوضاع المجتمع تدفع بنا إلى اتخاذ موقف فى الحياة ليس لنا منه مَفْضٍ ...

ثم تمهل يقول :

أصف إلى ذلك أن الموقف موقف إنسانى ، يجب أن نترفع به فوق المشاحنات والأحقاد ...

— إذا شئتَ الحق ، فقل إن الموقف لا يعدو المجاملات الرسمية والتظاهر بما هو فى الواقع رياء اجتماعى ...

ونهض الزوج على الفور ، فسأله الصديق :

إلى أين ؟

— ألم تُردنى على أن أذهب إلى المستشفى ؟ !

ووقف الصديق يتتسم فى ملاطفة ، وأخذ بيد الزوج يضغطها كأنه يقول له :

نعمَ ما فعلتَ !

وما كاد الصديقان يارحان المشرب ، حتى التفت الزوج إلى رفيقه ، وهو يتراءى بالمداعبة والمعاينة ... قائلاً :

وماذا تقترح أن أفعل أيضاً ؟

— مثلك فى رقة حاشيته ودماثة طبعه لا ينسى ما هو اللائق فى هذه المناسبات !

— تعنى أن أصطحب هدية ؟

— كدتُ أرغب إليك في ذلك !

— أليس من اصطحاب الهدية بدّ ؟

— ذلك عمل يوحى به الذوق السليم !

— لن تكون الهدية أكثر من طاقة ورد ، كيفما اتفق ...

وانطلقا معاً إلى بائع الأزهار ، فأخذ الزوج يسير في أرجاء الحانوت يتطلع إلى الرياحين المعروضة ... وما لبث أن أعرضَ عنها ، وأقبل على الزهّار يسأله عن نوع خاص من الورد النادر ، فاستنظره البائع لحظات ليجلبه له من مكان قريب ، فرجع الزوج إلى صديقه ينتظر الورد المنشود ، فابتدره الصديق قائلاً :

فيم وقوفك ؟

— في انتظار الورد الذى طلبته !

— هل طلبتَ ورداً معيناً ؟

— أجل ، طلبت نوعاً من الورد ، كنتُ أهديتُ إليها طاقة منه في

يوم الخطبة ... المسألة مسألة ذوق ، لا أكثر !

فهز الصديق رأسه ، وقال :

هذا عهدى بذوقك دوماً ...

حمل الزوج طاقة الورد قاصداً في صحبة صديقه إلى المستشفى ...

وانتهى بهما الدرجُ إلى الطبقة التى تقوم فيها حُجُجُ الوالدات ،

فاستقبلهما ممشي فسيح ممتدّ تسطع أضواؤه ، فتزید جوانبه سطوعاً ...
 المرضيات والأطباء في ذهاب ومآب ، يثنون الخطأ في همة ومضاء .
 وهنا وهناك زوار تختلف سيّاهم وتباین شاراتهم ، فهم بين قلق حائر
 بدافع لحظات الترقب والاستطلاع ، ومبتهج استخفته البشري ، فترنحت
 أعطافه من المراح ...

فأخذ الزوج يتلفت حوله ، وقد عاجلت حياه مَسحة من شحوب .
 وما كاد يجد نفسه عن كتب من إحدى المرضيات حتى أقبل عليها يواجهها
 في اهتمام ، فيسألها :

أين تقوم حجرة زوجته ؟

ولم يكن في وقت المرضة فسحة للوقوف وإجابة السائل ، فاستمهلته
 حتى ترجع إليه لتصاحبه إلى الحجرة التي تعنيه ...

فانتحى هو وصديقه ناحية ينتظران ، ومرت دقائق ظل فيها الزوج
 واقفاً فيما يبدو ، ولكنه في حقيقة أمره مستوفز الأعصاب ، يتحرك في
 موقفه حركات لو كانت خطأ لانطوت بها المسافات الطوال ...

ولح غير بعيد مَحفة يزجها بعض المرضيات ، وقد اضطجعت فيها
 سيدة عليها أعراض المخاض ، فرنا إليها الزوج متفحصاً متحققاً ،
 وهو يمين :

ليست إياها ...

وما كادت تتوارى الحفة بمن تحمل ، حتى ندّت صبيحة نسوية
 فرعت سمعه ، لا يدرى لها مأتى .

وأحس في هذه الصيحة زنين مكروب على شفا الهلكة ، ينشد
الغوث ...

ورأى نفسه على الرغم منه ، يقبل على صديقه ضاغطاً يده ،
وهو يقول :

ما هذا الصوت ؟

— صوت حامل على وشك الوضع ...

فازداد الزوج ضغطاً ليد صديقه ، وهمهم :
أ يكون صوتها ؟

فلاطف الصديق يده مبتسماً ، وقال :

أنت منى بصوتها أدرى !

فترك الزوج صديقه ، وخطا إلى نافذة قريية ، وأسلم نظراته
للأفق ، و طال به الوقوف على هذه الحال ، وقد حوّم به الفكر في
أودية شتى ، وعبر به الزمن إلى عهد تقضى :

شاطيء « سيدى بشر » يزخر بالرواد ، صفحة الماء تضطرب
بالأجساد وهى تغالب العباب ، هو فى مصطخب الموج يعلو مزهواً
ويهبط ، حارس الشاطيء المعهود فى قميصه المخطط يتوسط قارب النجاة ،
ذلك الرأس يطفو ويرسب تنسكب خصلات شعره الفاحم على صفحة الماء...
وبغثة دوت فى أذن الزوج صرخة استغاثة علفت بقلبه ، فغامت
عينه ، وأحس فى غشية حلمه كأنما هو يصارع الموج مندفعاً للحاق
بالغريق ...

وفي لفظة عصبية غير مقصودة ، ألقى صديقه مقبلا عليه ، فلم يلبث أن اندفع إليه ، يقول له :

إنه صوتها حتما ... إنها هي ... إنها تنشد معونتي بلا ريب !

وجاءت الممرضة تدعوها أن يتبعها ، فقادتھا إلى حجرة الزوار ، وقالت للزوج في إشراق :

لتطمئن .. كل شيء على ما يرام ... سأدعوك إلى حجرة الوالدة بعد قليل ...

وبارحت حجرة الزوار على عجل ، فقال الصديق للزوج :

ما بك ؟

فأجابه الزوج ، مُرْعَش الصوت :

لا شيء ... لا شيء ... إنما هوت هافت أعصاب ، من وفرة ما قمتُ به اليوم من أعمالٍ الخاصة .. آن لى أن أخفف عن نفسي متاعب العمل . ولبثا في الحجرة فترة ، لا يتناقلان الكلام ، والزوج ساهم يُرْهَف السمع ، ويتلقط ما يَنَام من الأصوات .

إن صَدَى الصرخة التي سمعها منذ لحظات ، ما فئى يترجع في

سمعه ...

إنه صوتها بلا ريب ...

شدّ ما تتألم ، بل شدّ ما تألمت إِيَّان الحمل ...

إنها نحيفة لا قِبَلَ لها بمثل ذلك المجهود ...

لم يرها منذ أشهر خلت ...
 أكانت في حاجة إليه ، فأخذتها العزة ، وأبت عليها كبرياؤها أن
 تطلبه ؟

ليس ينسى ما لها من ابتسامة وديعة ثمّ عن سريرتها النقيّة التي
 تنزل عنها الضغائن والأحقاد ...

صدى الصرخة يعاود أذنه في الحاجة وإلحاح ...

لن يصيبها مكروه ، ما دام قادراً على أن يدوّد عنها ذلك المكروه !
 ونهض مستوفزاً يقول لصديقه :

هيا بنا ننظر ماذا تمّ في الأمر ...

وفيا هما ماضيان إلى الباب ، قدّمت عليهما الممرضة ، بين يديها
 لفيفة بيضاء ، تحملها في عناية وتحفظ . وقالت مهللة الأسارير ، وهي
 تقرب اللفيفة إلى الزوج ، وتميط عنها اللثام :

انظر ... ألا تراها قمراً يتواضع لها القمر ؟ !

فحدّق الزوج فيها ، وقد عاجلته البهّة ، وسأل :

من تكون ؟

فتضاحكت الممرضة ، ومالت بوجهها إلى صديق الزوج ، تقول

له : انظر كيف يتجاهل ؟

وتطلع الصديق إلى محيا الوليدة بين ألفافها ، وصاح بصديقه

الزوج قائلاً :

نسخة منك وفق الأصل !

فرنا الزوج إلى الوليدة ، يتوسّمها في صمت واجف .
 حقاً إن فيها الكثير من مَسَابِيهِه وملاحه ...
 ولكن ذلك القم المتميز : لمن يكون ؟
 وتلك الشفة العليا ذات التتوء : أَيَّْةَ شَفَةِ تَشْبِيهِ ؟
 وطارت به الذكريات إلى يوم اجتلى فيه شبيه تلك الشفة ...
 يوم أنقذَ فتاته من الغرق ...
 يوم انتشلها من بين أطباق الماء ، وحملها إلى ظلّها على الشاطئ ،
 يسعفها بالعلاج ...

لقد كان أول ما استرعى نظره منها يومئذ تلك الشفة ذات التتوء ...
 لشدّما كان وجهها ساعتهذ شاحباً بالغ الشحوب ...
 كانت مشرقة على الهلاك !

ورفع بصره من فوره إلى الممرضة ، يقول : كيف حالها ؟
 — إنها بخير ... وإن كانت قد عانت عسيراً من المجهود ...
 — ألم يحين الوقت لزيارتها ؟
 — كما تشاء ... إنها في الحجرة التالية ...

وهمّ الزوج بالخروج ، فاستوقفه الصديق قائلاً :
 لا تنسَ طاقة الورد !

فجعل الزوج يتلفت باحثاً عنها ، ولكنه لم يعثر عليها ، وجدّ في
 البحث ، فذهب بحثه سُدى ...

فوقف لحظة حيران قلقاً ، ثم وقعت عينه على الوليدة ، فأشرق

وجهه بغتة ، ودنا من الممرضة يجتذب الليفة من يديها ، وانطلق إلى
حجرة الزوجة في خطأ سراع ...

وما إن دخل الحجرة حتى احتبست خطاه ...

لقد طالعت زوجه ... ممدودة على سريرها ، بادياً شحوبها ... فجعل
يرقبها مهتز الأوصال ...

وتلاقت عيناهما .

كانت نظرتها إليه كليله وانية ...

وألقي خطاه تنهادى به إلى السرير ، على استحياء ...

وإذا بوجه الزوجة تكسوه سحابة من الشجو ، وتتخايل عليه
اختلاجة إجهاش ...

فما هي إلا أن وجد الزوج نفسه يُهرع إليها ، ويضع الليفة مترقياً
في حضنها ...

وانحنى على يدها يبثها قبلة عميقة زاخرة !

مَوْعِد

كان اليوم يوم الجمعة ، والوقت منتصف الحادية عشرة صباحاً حين جلس « توفيق بك سعودى » يدخن ويرتشف القهوة على مهل . وهو فى الفترة بعد الفترة ينقل نظره فى جريدة مبسطة بين يديه ؛ إذ يستمتع بالراحة بعد أسبوع شاق قضاه يعمل فى وزارة المالية ، وعن كَثَبٍ منه جلست زوجته « بهيجة هانم » منكبّة على آلة الحياكة تَخِيط ثوباً لها .

ورفعت الزوجة بصرها تقول لزوجها : نسيتُ أن أخبرك بأن « سامى » قدم بعد خروجك أمس ، فدخل حجرة ملابسك ، وانتقى من بين أربطة الرقبة رباطاً راقه .

فقهقه « توفيق بك » وهو يقول :

لعل ما أعجبه هو الرباط الأزرق ذو النقط الأحمر ... !

— هو بعينه ...

— كنت أقدر ذلك ؛ فقد اشتريته منذ أيام قليلة ، ولم

أستعمله بعد .

ووضع « توفيق بك » رجلاً على رجل وأتم قوله : ثم ماذا ؟

— لقد عرّفتَ أمر الخُفِّ ...

— رأيته في قدمه ...

وجعل « توفيق بك » يهزّ ساقه عابثاً ، ثم قال :

ممن يأخذ إذا لم يأخذ مني ؟ ...

فتسّلق وجهُ الزوجة بابتسامة نيرة ، وعادت إلى ثوبها تحيكه .

وأقبل « توفيق بك » على الجريدة يقرأ ، ولكنه ما عزم أن ألقاها

جانباً وهو يغغم :

لا شيء إلا أنباء الحرب والغارات ... كأنما خلت الدنيا مما يستحقّ

أن يُروى ... ووُلاة الأمور لا يُعنونَ بغير ذلك من الشئون ، أما

حالة الموظفين ، والنظر في إنصافهم ومنحهم من الدرجات ما يستحقون ،

فذلك ما لا يتطلب منهم أقل العناية والاهتمام !

فأجابته زوجته وهي تدير آلة الحياكة وتتبع بنظرها حركة الإبرة :

ومذكرتك التي تطلب بها الترقية ... ماذا تم فيها ؟ ...

— لقد أعددتها ، ولكن يجب أولاً أن ...

وسمّع « التليفون » يدق ، فقال « توفيق بك » على الأثر :

أكبر ظني أنه « محفوظ بك » ، لقد وعدني أن يكالمني اليوم في شأن

هذه المذكرة .

— أسرع إذن ... !

وكان « التليفون » في ركن بعيد من الردهة ، فنهض إليه « توفيق بك »

وظلت زوجته على حالها منصرفة إلى ثوبها تسخيطه .

وجذب « توفيق بك » السماعه وهو يقول : « ألو ! »

فإذا بصوت حلو النغمة لين النبرة يجيب :

« ألو ... من المتكلم ؟ »

فأجاب في تحفظ : هنا منزل « توفيق بك سعودى » .

فقال الصوت الناعم : أموجود « سامى بك سعودى » ؟

فأجاب « توفيق بك » فى لهجة حازمة :

وماذا تريدن من « سامى بك سعودى » ؟

— أريد أن أعلم أولاً أموجود هو أم غير موجود ؟

فقال « سعودى بك » فى عنف : غير موجود !

فتلطف الصوت الناعم وقال :

لا بد أنك « عيسى الفراش » ، لا تحتدّ يا « عيسى » ، أرجو منك

أن تخبر سيدك « سامى بك » أن موعدنا اليوم سيكون تجاه دار البريد

فى السادسة مساء . لا تنسَ ... سعيدة يا « عيسى » ...

وهمّ « توفيق بك » أن يقاطع المتكلمة ، فخانه صوته ، فرمى السماعه

بكانها وهو يهدير : وقاحة ... قلة أدب ...

ثم عقد يديه خلف ظهره ، وانطلق يصيح :

يا « عيسى » ... يا ولد يا « عيسى » ... أين أنت يا كلب ... ؟

فسمع زوجه تقول :

« عيسى » اليوم مريض ... وهو فى بيته معتكف ...

فدمدم « توفيق بك » قائلاً : فليذهب فى داهية .

وانبعث يصبح ثانياً : يا « سامى » ... يا ولد يا « سامى » ...
فقال زوجته وعيناها موصولتان بإبرة الحياكة :

إن « سامى » مع أستاذ الرياضة فى حجرة الدرس ...
— مع أستاذ الرياضة ؟ !

واستأنف صياحه ينادى : يا « سامى » ... يا ولد يا « سامى » ...
فرفعت « بهيجة هانم » رأسها عن آلة الحياكة وقالت :
اتركه بربك يتم درسه فى هدوء . إن الامتحان قريب ...
— امتحان ... هه ... !

وظفق يذرّع الردهة ويداه معقودتان خلف ظهره وهو يغمغم
بالألفاظ يَمْضُغُهَا مضغاً ، فسألته زوجته :

ما بك ؟ ... أحدثك « محفوظ بك » بشىء جديد فى شأن المذكرة ؟
— المذكرة ... المذكرة ... نعم ... نعم .

وما فتئ يذرّع الردهة بالخطا القلقة ، ومضت « بهيجة هانم »
تستكمل عملها فى حياكة الثوب ، وقد فطنت إلى أن أمراً جدّ فى شأن
المذكرة عكر على زوجها صفوه ، فحرصت على تجنب الحديث فترة
حتى تسكن الثائرة .

وليث « توفيق بك » يتابع سيره ذهاباً وجيئة ، وسمعت زوجته
يجمعهم : أطفال لم يخرجوا بعد من البيضة تصدر منهم هذه الأعمال !
— من تعنى ؟

— ابنك « سامى » ... هل أغنى غيره ؟ .. ابنك الذى حذرتك مراراً

وتكراراً من تدليله فلم تصغى إلى قولى .

— ماذا جرى ؟

— لا شيء ... لا شيء ... « سامى » آية فى الأدب والكمال ...
وما زال يسير وقد وضع يديه فى جيب معطفه المنزلى . وما هى
إلا أن رجع إليها ووقف أمامها يقول : أنت التى أفسدتى . ما زلت
تغمرينه بآيات المدح والإعجاب ، ولا تنفكين ترددين على أذنيه أنه
جميل ، خفيف الروح ، غاية فى الجاذبية ، حتى حسب نفسه « دون
جوان » أسر القلوب !

— ما هذا يا « توفيق » ؟

— ألم تلاحظى عليه أنه أصبح الآن يُعنى بزينته أكثر من عنايته
بدرسه ؟ لقد صار مكتبته أشبه شئ بمعرض شائق للعطور والأدهان !
— إنه شاب ، وسنه تتطلب ذلك !

— سنّه تتطلب ذلك ؟ لعلك تزعمين أيضاً أن سنّه تلزمنا بأن نبحث
له عن ... عن خليلات ...

— أنت بلا ريب تهذى ... !

فتحول عنها ، وخطا قليلا ، ثم قفل إليها يقول :

قلت لك لقد سممت عقله بهذا المديح ...

فابتسمت الزوج وقالت : ألا تعتر الأم بجمال ابنها؟ ... أليس « سامى »
جميلاً يا « توفيق » ؟ ... ولكنى أعترف لك أنه لم يبلغ مبلغ أبيه فى الوسامة
مع أن قوامكما واحد . وعيونكما متاثلة ... وهذا الحاجب والأنف والفم
(١٣)

نسخة أصيلة منك يا « توفيق » . تكادان تكونان توأمين !

وانثنى عنها « توفيق بك » ، وترَفَّقَ في سيره ، بيد أنه لم يعقِدْ يديه في هذه المرة خلف ظهره ، ولم يضعهما في جيب معطفه ، بل رفعهما في سَكينة وتؤدّة إلى شاربه وأخذ يفتله في عناية ! ... وعَرَّجَ على مرآة قائمة في الحائط ، وراح يتراءى فيها ، ثم انعطف يمشى في الردهة لا ينبس . وعنّ له أن يقصد حجرة « سامى » فخفّ إليها . وامتدت يداه تعبثان بأوراقه وأشياءه . وعثر فيما عثر على بضعة أعداد من مجلات أسبوعية ، فاعتدل يتصفحها على عجل ، فاسترعت بصره صوراً لبعض غانيات يعملن في المسارح والمراقص وقد جلتهن الصورُ في أوضاع خلابة ، فأنهمك يتفرّج ، ورأى في عقب إحدى الصور علامة مرقومة بالقلم الأحمر ، فأطال نظرته إليها ، وأسرع إلى ذهنه حديث « التليفون » وذلك الصوت الناعم الرقيق ، فلمعت عيناه ، واندفع ينقر حافة النافذة ، ثم غمغم قائلاً : سأفاجئه بصورتها ، وسيفضح أمره ...

واقطع الورقة من المجلة ودسّها في جيبه ، ثم غادر مكانه وتوجه نحو الباب ... فعلقَ بصره بصورة ابنه على خُوان الزينة محوطة بقوارير العطر والأدهان ، فثقل قبالتها وقتاً وجعل يتفحصها ، ثم رفع حاجبه الأيمن ومط شفته السفلى في استهزاء ، وترك الحجرة وهو يتضاحك .

وما إن بصُرْتُ عينا زوجه به حتى بادرتّه قائلة : ومذكرتك ، ماذا قال في شأنها « محفوظ بك » ؟ ..

— مذكرتي ! ... قال لي إنه عرض الأمر على الوزير ، ولكنى

لم أعلم على وجه التحقيق ماذا تم حتى الآن ؟

واتجه إلى الشرفة وأسند يديه إلى حافتها وسرّح ببصره في أجواز الفضاء . ثم أخرج من جيبه ورقة المجلة ، وجعل يتأمل فيها ، وأسرع يطويها ، ثم أشعل لفافة من التبغ ولبث يتفرس في دُخانها ، ورجع إلى الردهة بخطا بطيئة ، وجلس على المتكأ وقد بسط الجريدة أمامه وظل وقتاً ينقل نظره فيها ، دون أن يقرأ حرفاً ... وسرعان ما صاح دفعة واحدة : أف لصوت هذه الحائكة ... ما أنكره !

فرفعت « بهيجة هانم » بصرها إليه تتعجب ، بيد أنها لم تنبس ... كان هذا أول اعتراض سمعته منه في شأن هذه الحائكة ... وما هي إلا أن استأنفت حياتها ، فغمغم « توفيق » في حدة : إن الراحة مفقودة في هذا المنزل . وألقى الجريدة من يده ، ونهض إلى حجرتة .

طرح « توفيق بك » جسمه على مقعد فسيح وأخذ يزفّر ، ثم واتاه الهدوء وريداً ، فانطلق يفكر فإذا به يعرضُ مشاهد من حياته ، وأحس في هذه اللحظة وحدها ما ساد حياته الراتبة من خمول يستوجب الملل : المنزل والديوان والقهوة . وجوه لا تتغير ، ونظام لا يتبدل ، وطابع من الحياة أشبه بطابع التلاميذ في المدارس أو الجند في الشُكنات ... كان صوت الحائكة يهدير في الردهة ، فصاح وهو في مكانه لم يفارق مقعده :

أكاد أجنّ من هذه الحائكة ...

وحينئذ قدّم « سامي » على أبيه فقال له : هلي طلبتني يا أبي ؟

— نعم . طلبتك ... أهلاً وسهلاً !

وزايل « توفيق بك » مقعده . واشتبتك يداه خلف ظهره ، وعاد سائراً في الحجرة يغدو ويروح ، ثم مثل أمام ابنه ، وقال له وقد زوى ما بين عينيه : إلى متى استهانتك بحق أبيك ؟

فدهش الفتى وتساءل : أى استهانة يا أبى ؟

— 'خفى من قبل ، ورباط رقبتي أمس... إنك لتبيح لنفسك ما أعدّه افئثاءً على ما يجب لى من احترام .

— الحق يا والدى أنه لم يكن لدى رباط على لون كسوتي الجديدة ، وقد استأذنتُ والدتى فى استعارة هذا الرباط الملائم ، فأذنت لى .

— أذنت لك ... تعنى أن لوالدتك حق التصرف فى ملابسى كما تشاء ! ...

— لم أقل ذلك ... ولكننى أقصد ...

— آه ... لا . لا ... لقد بلغ الأمر حدّاً لا يطاق ...

— سأعيد إليك الرباط من فورى ...

— بعد أن استعملته ... شكراً ... وما شأن هذه الكسوة الجديدة ؟..

لم أعلم بها من قبل .

— لقد نقلتُ إليك نبأها .

— لعلها الكسوة الخامسة أو السادسة التى تستحدثها هذا العام ، على

حين أقصرُ أنا على واحدة أو اثنتين ...

— إننى لا أستحدث كسوة إلا بأمرك ...

— بأمرى أو بغير أمرى ... لقد أصبحت الآن لا تُعنى إلا بملبسك

وزيتتك ... تحسب نفسك أبهى الشبان رؤاء وأرشقهم قواما وأجملهم شكلا ... يجب أن تخلّي رأسك من هذه الأفكار .

— ما هذا يا والدى ؟ إننى ...

— يجب أن تهتمّ بدروسك . بدروسك وحدّها ، وأن تعدّل من سيرك ، وتقوّم من سلوكك ... أفاتك أن الامتحان قريب ؟

— إننى لا أغفُلُ عن الدروس يا أبى ...

— هذه نصيحتى إليك ... وما أبغى إلا نفعلك ...

وضرب يده فى جيب معطفه المتزلى غير عامد ، فلمست أنامله ورقة المجلة فأمسك بها وأبقاها مكانها ، ومشى يذرّع الحجرة بخطوات قلقة وقال : إن والدتك قد أفعمت رأسك بألوان زاهية من المديح والإطراء ، فركبك الغرور وخيلت لك نفسك أنك «دون جوان العصر» . وتضاحك وهو يردد :

ولكن أى «دون جوان» هذا ؟ ... «دون جوان» لا يساوى بصلة ... !

وربّت كتف ابنه فى مداعبة ساخرة وقال له : لا يغضبنيك كلاى ! إننى لا أعنيك وحدك ، بل أعنى هذه الطائفة المتطرفة من شبان اليوم . هذه الطائفة التى إن وازنت بينها وبين طائفتنا حين كنا فى مثل أعماركم ، ظهر لك البؤس شاسعاً ... ومع ذلك فلم نذهب بعيداً ؟ ... تأمل قامتك المقوّسة ووجهك المعروق ثم ارجع بصرك إلى قامتى المنتصبة ووجهى الرّيان . لقد أفسدكم التخنث ، على حين دفعتنا الرجولة الحقّ إلى المكانة التى

نستحقها ... ذاكرُ دروسك ... إن الامتحان قريب ...
 وضمت مائدةُ الغداء الأبَ والزوج والولد ، وكان « توفيق بك »
 صموتاً موزع الفكر ، وحضر الطعام ، فأكل الثلاثة في جو يسوده
 السكوت المطوى على قلق وحيرة .

وزفر « توفيق بك » مدمماً :

كل يوم « قورمة » ... أليس في الدنيا غير « القورمة » ؟ ...
 فقالت زوجه وهي تنظر إليه متعجبة :

إنه اللون الذي تستطيه وتفضله على غيره من الألوان ...

— ولهذا السبب تقدمينه إلى كل يوم... إن أشهى الألوان وألذها إذا
 قدم كل يوم كان جديراً أن يُعافَ ويكره ...

— ولكننا لم نطبخ « القورمة » منذ عشرة أيام ...

— تعين أننى كاذب فى دعواى ... ألا يحق لى أن أنتقد الطعام
 الذى آكله ؟.. أتريدى أن ترغمنى على أكل ما لا أشتهى ؟..

— إنك ثائر الأعصاب اليوم يا « توفيق » ولا يمكننى أن أبادلك
 الحديث .

فصاح على الأثر : إن كلامك هذا هو الذى يثير الأعصاب .

— إذن سألزم الصمت إن كان هذا يروقك .

— لن تسمعنى ألفظ كلمة واحدة . استريحى !

وفى الساعة الخامسة جعل « توفيق بك » يرتدى ملابسه ، فإذا به يبتقى
 أبهى ما عنده ، وكان يختلس النظر إلى ساعة يده ، فى الفينة بعد الفينة ،

وأحكم قتلَ شاربه وتضميخ شعره بالعطور والأدهان .
ودخلت عليه زوجه تقول : إنك بلا ريب تعدّ نفسك « للسينا » .
سندهب معاً على حسب الاتفاق ...

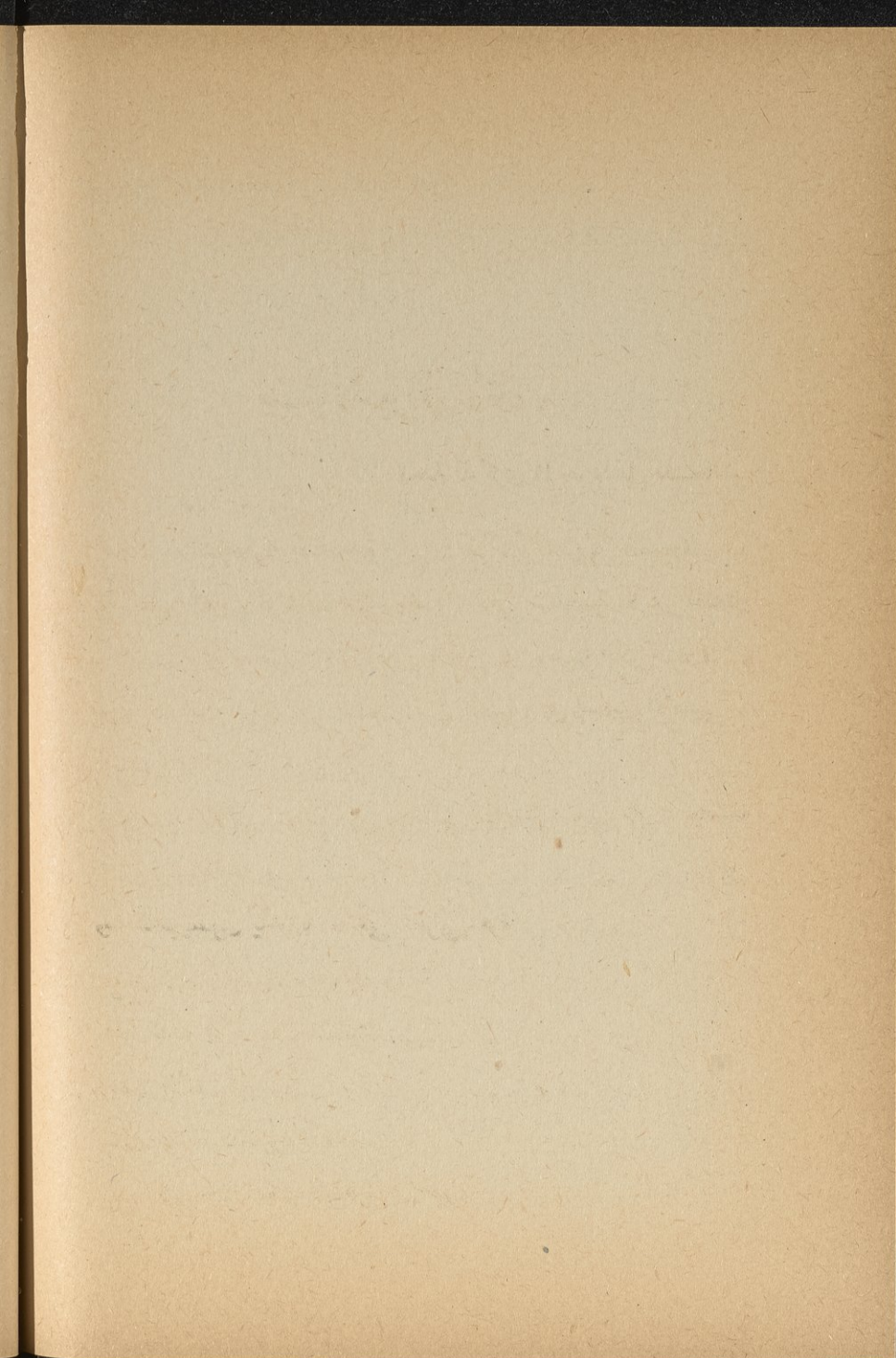
فقال لها وهو مهتمّ بعقد رباط الرقبة :
ولكن يا « بهيجة هانم » لدىّ موعد مع « محفوظ بك » في شأن المذكرة .
— المذكرة ... ما هذا القول ؟

فربتّ خدها مداعباً ، وقال : لا تستأني يا عزيزتي ... إنه موعد
مهم جداً ... أما « السينا » فيمكن أن يصحبك فيها « سامى » .
فغمغمت « بهيجة هانم » : « سامى » ... لقد أخبرني بأنه سيذاكر
دروسه مع صديقه « فتحى » ...

فوقف « توفيق بك » وقفة اعتراض ، وقال : درس في الصباح ...
ودرس في المساء ... أنسيّت أن اليوم يوم الجمعة ؟ ... يوم الراحة
والاستجمام ... إن الولد يقتل نفسه بهذا العمل المضنى ... !

وأصدر « توفيق بك » أمره إلى ابنه بأن يلغى مذاكرته مع صديقه
« فتحى » ، ويصحب أمه إلى « السينا » ، لأنه شديد الحاجة إلى رياضة
ذهنية تريجه من كدّ المذاكرة ...

وغادر « توفيق بك » المنزل بعد أن رشّق وردة حمراء في عروة
سترته ، وسار في خطا المتظرّف الرشيق ، ووجهته ... دار البريد !



سِرُّ الْأَمِيرِ الْهِنْدِيِّ

تحية لذكرى المرحوم على طينجات

سمعتُ بالشخصية المسرحية التي سَرَتْ بِحديثها الصحف ،
مُغْدَقَةً عليها ألقاب الإشادة والإعجاب ، وهي شخصية الأمير الهندي
« أوتا كاما » الذي يعرض دَوْرَه الهزليّ البارِع في « سينا الكواكب » ..
فهنا بي الشوق إلى أن أقصد دار « السينما » في إحدى الأماسي ،
لأنعمَ بشهود ذلك الفصل .

وما إن بدا الأمير يتواثب في خفة على المنصة ، حتى ثارت عاصفة
من التصفيق والحفاوة .

وما كاد بصرى يأخذه ، حتى عَرَتْنِي هزة ...

هذه الملامح والسمات معروفة لى بلا ريب ...

هذا الوجه الأعجف المسنون ...

وذلك الأنف المدلّى ...

وتلك القامة القصيرة المرنة ...

ليس شىء من ذلك بالجديد فى عيني ...

ولكن ما تخطبُ هذه اللحية المشدبة الخفيفة المعصفرة ؟ !
 وحوّم بى الفكر غير قليل ، تختلط على الأشباه ، وأنا من أمر
 هذا الأمير فى حيرة وعجب ! ...
 ليس هذا الرجل غريباً عنى ...
 أممكّن أن يكون من أعنى ؟
 أهو حقاً ؟

إن من يتجه إليه بالى قد طواه الردى منذ أعوام ، وأصبح فى
 ذمة النسيان ...

انطلق الأمير الهندى يمارس ألاعبه ، فاستهوانى بلطائفه وأفانيه ،
 وما يشيعه من جوّ مَرَحٍ ينتزع الضحك من أعماق القلوب ...
 فأنسانى ذلك ما كنت أفكر فيه من اشتباه شخصيته على ...
 واندججت مع النظارة فيما ينعمون به من أنس صخب .

لقد كان صديقنا « أوتاكاما » يتألق فى لبوسه الحريرى ، تنعكس
 عليه ألوان الأضواء ، وعلى رأسه عمامته الهندية المتطاولة الموشاة ، آمنة
 أن تسقط ، وإن علا بها وهبط ، وإن دار بها فى الهواء دَوَراته « البهلوانية »
 الخواطف ...

وفى الفينة بعد الفينة تنبعث من حلقه أصوات متباينة ، يحاكى بها
 هديل الحمام حيناً ، ونُعاب اليوم طوراً ، وُصراخ القروذ تارة ،
 ومُواء القطط تارة أخرى ...

وقد يدع ذلك كله ، فتراه دفعة واحدة قد خيّل إليك بما يصطنع

من نبرات متخالفة ، ولهجات متباينة — أنك تستمع إلى مجلس صاخب
لأناس اشتد بينهم النقاش بمختلف اللغات . . .

ولا يلبث أن يفجأك بدورات متلاحقة يمثل لك فيها أشهر رقصات
الأمم ، غير غافل عن إظهار حذقه وبراعته في رقصة البطون !
وإنه ليبلغ الذروة في ختام دوره ، إذ تنشق الأرض عن الشيطان
في صورة مارد سمهري القامة ، بائن الطول ، كأنه في ثوبه الأحمر
القاني لسان من نار . . .

فيتصدى له الأمير الهندي ، وسرعان ما ينشب بينهما عراك يلتحمان
فيه ويختلطان ، فلا تدرى في زوبعة المعركة الدائرة : أيهما الأمير وأيها
الشيطان ؟

ولا يلبث الشجار أن ينجلي عن فوز ذلك القزم الهندي ، بعد أن
تورمت عيناه ، وتمزقت سراويله ، وهو يجرجر المارد ، ممسكاً بقدميه ،
على حين يترايل شبحهما عن النظارة بترايل الأضواء ، وتراخي الأستار ،
وسط عاصفة هوجاء من التصفيق والهتاف . . .

وتبع ذلك الدور عرض رواية سينمائية على الستارة البيضاء لم تستطع
على طلائعها أن تنسيني مباهج تلك المعابث التي راعنا بها القزم الهندي
الساحر . . .

وفيما أنا أبارح دار «السينما» شهدت لمة من الناس قد تجمهروا عند
الباب ، وقد انبعث منهم التصفيق والضحجج ، وإذا بعيني تلمحان القزم
الهندي في لبوسه الحريري اللامع ، وعمامته الطويل ، ولحيته الهفافة

المعصفرة ، يخترم الصفوف ، تهادى خطاه ، وهو يوزع بسماته الرفيعة
بين الجموع ، ويبعث تحياته إشارات رشيقة يتجلى فيها الظرف
والكياسة . . .

رَنَوْتُ إليه أتأمله ، واتفق أن التقتُ نظرتي بنظرته ، فسرعان ما
لمحتُ في عينه اختلاجة طارئة ، وأحسستُ بدافع يحدوني أن أقبل عليه
أحبيه . . . ولكنى شعرتُ به يُشيع عني بوجهه ، ويتابع سيره ، ثم
ارتقتُ سيارته الفخمة ، وغاب بها بين أطباق الزحام . . .

وبينما كنتُ في طريقى إلى البيت ، عاودَتْنى الدهشة والعجب من
ذلك التشابه الناطق بين الأمير الهنـدى وبين صديق القديم « أبى على
الأرتيست » ، فتملكتنى صورته ، واستبدتْ بى ذكريات أيامه . . .
وهل أنسى آخرَ موقفٍ له على مَسْرَحِ الخشبىِّ الوضع الذى شَيدَه
فى « سيدنا الحسين » بما ورثه من مال أبيه ، وكيف كان يمثل دوره فى
مأساة عنيفة انتهت بأن شيعة الجمهور بألوان من القذائف وضروب من
صياح الاستنكار وصفير الاستهجان ؟ ! . . .

وكانت آخرَ لقية رأيته فيها ، وهو موسّد فراشَ المرض فى حجرته
المهلهلة التى يفصح كل ما فيها عن الإفلاس والاندحار . . .
ما أنسَ لا أنسَ وجهه الممتنع ، وقد انتابته غيبوبةٌ مرضه الأخير ،
فاندفع فى تخليطه يهنى بمشروعه الجسم : إنشاء مؤسسة للتمثيل على
أحسن طراز . . . !

وفي الغداة ، وأنا أتناول فطوري ، صلصل « التلفون » ، وإذا المتكلم
 كاتب سر الأمير الهندي « أوتاكاما » يُنهي إلى رغبة الأمير في لقائي
 الآن بفندق « شبرد » ...

وكانت مفاجأة غريبة أسلمتني إلى تفكير حائر لم ينته بي إلى
 قرار ...

ما خطبُ تلك الدعوة ؟

وماذا يبتغي الأمير مني ؟

وكيف عرّفتني ؟

وكنتُ كلما تقاسمتني هذه الأفكار ، ازدادتُ شغفاً وتطلعاً إلى هذا
 اللقاء . وجعلتُ أتعجل الخطأ ، وأنتهب الطريق . حتى إذا بلغتُ باب
 الفندق ، ألفتُ كاتب سر الأمير يرتقب محضري ، فتقدمني من فوره
 إلى مَثَوَى الأمير ...

وما كدتُ أخطو في الحجرة حتى رأيتُ « أوتاكاما » ينهض دفعة
 واحدة لاستقبالني ، وقد بسط لي ذراعيه ، وهو يصيح : أهلاً وسهلاً ...
 فوقفْتُ مشدوهاً أحدّق فيه ، وكأنني قبالة شَيْسَح قد انشقتُ عنه
 غياهبُ المجهول البعيد . وهممتُ : من أرى ؟

فعلا صوته بقوله : صديقك القديم ، ألا تعرفني ؟

— « أبو علي » ؟ !

فأقبل عليّ يعتنقني ، ويشدّ على يدي ، ورأيتني أقول له :
 لقد شهدتُك البارحة ...

— وأنا أيضاً تبينتك بين الناس . . .

ومال بوجهه قليلاً ، وهو يدعك يديه . ثم قال :

الموقف لم يكن مواتياً لملاقاتك !

ثم دعاني إلى الجلوس ، واتجه إلى منضدة قريبة ، فتناول منها قدهاً

قدمه إلى قائلاً :

تذوق هذا الشراب الهندي . . . ليس فيه عليك ضير . . .

فأمسكتُ بالقدرح ، وقد انسرح بصرى ، وأنا ساهم أغمغم :

ولكن . . . كيف كان ذلك ؟

فأطلق الصديق ضحكة مجلجلة ، وقال : لعلك تعجبُ من لقائي

الآن ، بعد أن غيبتني أطباق الثرى . . . يُحبي العظام وهي رميم !

ثم أخذ يدي يضغظها ، واكتسى وجهه مسحة الجد والتفكير .

وقال :

لقد مت حقاً ، مات صديقك « أبو علي » الذي كنت تعرف

من أمره كل شيء . . . ولقد بُعثتُ اليومَ بعثاً جديداً . . . تلك حياة

طويتها ، وهذه حياة أخرى أحيها ثانياً . . . !

ومدّ يده إلى علبة اللفاف السوداء الفاخرة ، وأعطاني واحدة منها ،

وأخذ لنفسه أخرى ، وأشعل اللفافتين بقداحة مذهبة ثمينة . . .

واسترخى في ضجعته ينثف ضباب الأنفاس ، وهو يقول :

ما أبجل أن يستمرئ الإنسان أطايب الحياة . . .

وشاغ الصمت بيننا فترة ، وأنا أتفرس فيه ، وهو يستمتع باجتذاب

الأنفاس من لفافته ، وسمعتهُ يقول وهو تائه الفكر ، شارد النظرات :
 كان بودّى أن ألقى بقية الرفاق ، وأن أزور معاهد الذكريات ...
 ولكننى أريد أن أستبقى لنفسى حياىى الجديدة ، فلا أشوب صفوها بنبش
 الماضى . ذلك الذى كابدتُ من أيامه ما كابدتُ !

— ألسْت راضياً عن حياتك الأولى ؟ ... لقد كنتَ فيها مجاهداً ،
 وكانت لك مُثل عالية تناضل فى سبيل تحقيقها ...
 — لم يكن ذلك كله إلا عبثاً وأضغاث أحلام ... لندع الميت
 ينطوى عليه قبرهُ ! .

فجرتُ من القدر جرعة أذوقها على مهل ، وقلت خافض
 الصوت : حقاً إنه لسرّ عجيب !
 فتطلق وجهه ، وقال :

« ما زلت أنتَ كعهدى بك ، طلاعاً إلى التعرف ، شديد الفضول ..
 لن أبوحَ بمكنون أمرى لغيرك ، فكن له صائناً ...
 إن هى إلا أيام قلائل أقضيها هنا فى وطنى الأول ، ثم أواصل
 التطواف فى مختلف الأصقاع ...

لقد شهدتنى آخر مرة وأنا على فراش الاحتضار ، أعالج سكرات
 الموت ... وما كان لك أن تعرف من أمرى بعد ذلك أىّ شىء !
 لا تنتظر منى أن أجأهرك بالكثير مما غاب عنك ...
 بحسبك أن تعلم أنى بعد أن ذاع منعاى بوقت لا أدرى أقصيراً كان

أم غير قصير ، شعرتُ بمبعثي ثانية في مدينة « الأقصر » . . . وكنتُ
لا أكاد أجدُ لى مأوى ، وتدهورتُ بي الحال أسوأ التدهور ، أمسك
الرقم بالكسرة بعد لأى ، وأمتن أزدل المهن استعطافاً للقوت ...
وكنتُ ساعةً على رصيف النيل ، أتملى مغربَ الشمس ، وأشباحُ
السفن تنساب على متن الماء غادية رائحة ، تكسوها صبغة الشفق ،
وكأنها بما تعكسه من ظلال قائمة تحمل بين طياتها طلائع الليل . . .
وبينا أنا مستغرق فى تأملاتى ، أعرض حياى الماضية ، وأوازن
بينها وبين أياى الحاضرة ، إذ شعرتُ بيد تلاطف كتنى ، وإذا أنا أمام
رجل أجنبيٍّ مهندم ، حليق اللحية ، ناصع البشرة ، يرتسم على وجهه
وسمُ السنين . . .

فقال لى فى لهجة مصرية مألوفة: هل لك أن تكسب الليلة « ريالاً » ؟
فقلت على الفور وسُعار الجوع يلهينى : بسرور . . . نظير ماذا ؟
فأخذ يبدى ، وسار معى على الرصيف ، وهو يقول : الأمر هين
لا يكلفك شيئاً . . . ليس عليك إلا أن ترتدى الحلة الرسمية السوداء
والقبعة العالية ، وتخطر على المسرح بضع دقائق !
فثارت بي ذكريات خالية ، ذكريات المسرح ، ومواقفى على
منصبته . . .

آية مفاجأة هذه التى تدعونى أن أصل ما انقطع من حياى الفنية ؟
فوقفتُ أشرع نظراتى إلى الرجل ، وقلت :
ليس المسرح غريباً على . . . تستطيع أن تركزن إلى . . . وسترى

من أمرى عجباً . . . اشرح لي ما ينبغي أن أضطلع به من مواقف البطولة . . .

فأخذ الرجل بيدي ثانية يتابع بي السير ، وانطلق يشرح الدور الذي اختارني له ، فتبينت أنه يريدني لموقف هازئ أغدو به أضحوكة للناظرين . . .

فأنفت ذلك كل الأنفة ، واستيقظت كبريائي تحميني أن أذعن لهذه السخرية التي تجافي الكرامة . . .

وباطلا حاول الرجل إقناعي ، وتهوين الأمر عليّ ، حتى لقد اضطررت أن أردّه غني ، فأغلظت له في القول . . . وكلما أصررت ، ازداد بي إلحافاً ، وهو ينظر إليّ في ملاطفة ، ويتسم لي في رفق . . .

وما زال بي ، حتى قلت له في لهجة حاسمة :
هيات أن أظهر على المسرح إلا في الموقف الذي هيأتني له العناية الإلهية . . . لقد خلقت لأداء رسالة « المأساة » !

فألقيته يتأملني ملياً ، وابتسامته تلتمع على محياه ، وقال :
ليست هذه أول ساعة رأيته فيها ، فأني رقبته أياماً موصوله ، وفطنت إلى النوع الذي تجيده ، ويقيني أن العناية الإلهية إنما هيأتك لغير « المأساة » . . . إني رجل قد بلوت المسرح ، وأبليتني التجارب ، فلتطمئن إلى اختياري ، وأؤكد لك أنك لن تندم على مطاوعتي !
فصحت حمي الصوت ، راجف الأوصال :

« المأساة » ... وإلا فلا !

فنظر إلى الرجل نظرة إشفاق ، وقال لى :

شأنك وما تريد ، يا صاحبي ، وهاك عنواني ... إن شئت أن
تراجع نفسك ، وترضى ما عرضته عليك ، فأنا فى انتظارك ، أرحب
بك ...

ودفع إلى بطاقةته ، وانصرف عني ...

فوقفت أشيع شبيهه يطويه الظلام ...

ثم أدتُ بصرى إلى النيل ، أتينا فى غير وضوح قلاع السفن تميد
فى الأفق ، كأنها أشباح مخيفة توشك أن تهجم على ...

وتناهت إلى سمعى أصوات المجاديف ، وهى تقرع الماء قرعها المتواتر ،
فتبعث فى نفسى الوحشة والاكتئاب ...

ووجدتني أتنحى عن الشاطئ ، ويداي معقودتان خلف ظهري ،
وأنا خافض الرأس ، يتوزعنى خليط الهواجس والأفكار ...

وأحسستُ بين جنبيّ معركة الجوع تدور رَحَها فى صَخَب
وعنف ...

مهما يكن من أمر ، فلن أذيلَ فنى ، ولن أشتري بمثلى العالية
ما يُعرض علىّ من قُوت وضيع ، ومجد رخيص !

ولكن ... لتدبر الأمر على هينة ورسنل ...

ذلك الرجل الأجنبيّ يريدنى على أن أظهر فى موقف فكاهى ...

أليست الفكاهة مُعترفًا بها فى التمثيل ؟

أليسُ للمسرح أبطال « الملهاة » ؟
 أليسوا هم وأبطال « المأساة » على قدم المساواة ؟
 وتعالى من أحشائي صوت الغوث ...
 وطوف بمخيلتي أبطال الأفاكه والمهازل في عالم الفن ، يعرضون
 أدوارهم أمام عيني ...
 فرأيتني أستوقف شبح « شارلى شابلن » في مواقفه المشهورات ، لم
 يدع حركة إلا قام بها ، ولا وسيلة إلا ابتغاها ، انتزاعاً للضحك ،
 وبعثاً للبهجة والإيناس ...
 على أية حال لو قدر لي أن أتدلى بنفسى إلى مواقف هؤلاء الأبطال
 المضحكين ، فلن يكون ذلك إلا في مثل هذا البلد الذى أنا فيه غريب
 لا يعرفنى أحد ...
 وأخرجت بطاقة الرجل ، أقلب فيها النظر ، على سبيل التعرف ،
 فشعرتُ بخطاى تطوى الطريق إليه ...

وكان نجاحى فى تلك الليلة على المسرح تقريراً لمصيرى !
 لقد تراميتُ فى خضم حياتى الجديدة ، بدافع لا طاقة لى برده ،
 وتوالت الأيام ، أوصل الرحلات والأسفار ، يسلمنى بلد إلى بلد ،
 ونجمى يزداد من سطوع ، والنعمى تُقبل على بغير حساب ، وأنا
 أقوم بدورى الفكاهى الحديد ، منتحلاً شخصية أمير هندى ...
 لقد بدأت الغشاوة تنقشُ رويداً عن عيني ، فأبصرت نفسى
 على حقيقتها ، وتوضحت لى عبقرى فى ميدانها ، وعلمتُ أن مهمتى

الأصيلة على المسرح هى تلك المهمة التى رأيتها أنت منى البارحة . . .
أن أرقص ، وأن أدور ، وأن أوالى هذه الأفانين من المعاكسات
والمشاحنات ! . . . »

واستبقانى صديقى « أبو على » — أو بالأحرى : أمير الفكاهة
الهندى — ساعة ، نعمنا فيها بأطياب الأحاديث ، وتذاكرنا سؤالف
الأحداث . . .

وتركته مُواعداً إياه أن نلتقى فى القريب ، فصدفتُ بي عن المبادرة
إلى إنجاز الوعد شواغلُ لم أستطع لها دفعاً . . .

وصبحَ يوم قرأت فى صحيفة سيارة أن الأمير الهندى « أوتاكاما »
بارح « القاهرة » على متن إحدى الطائرات ، تلبية لدعوة مفاجئة تلقاها
من إحدى الدوائر الفنية فى الخارج . . .

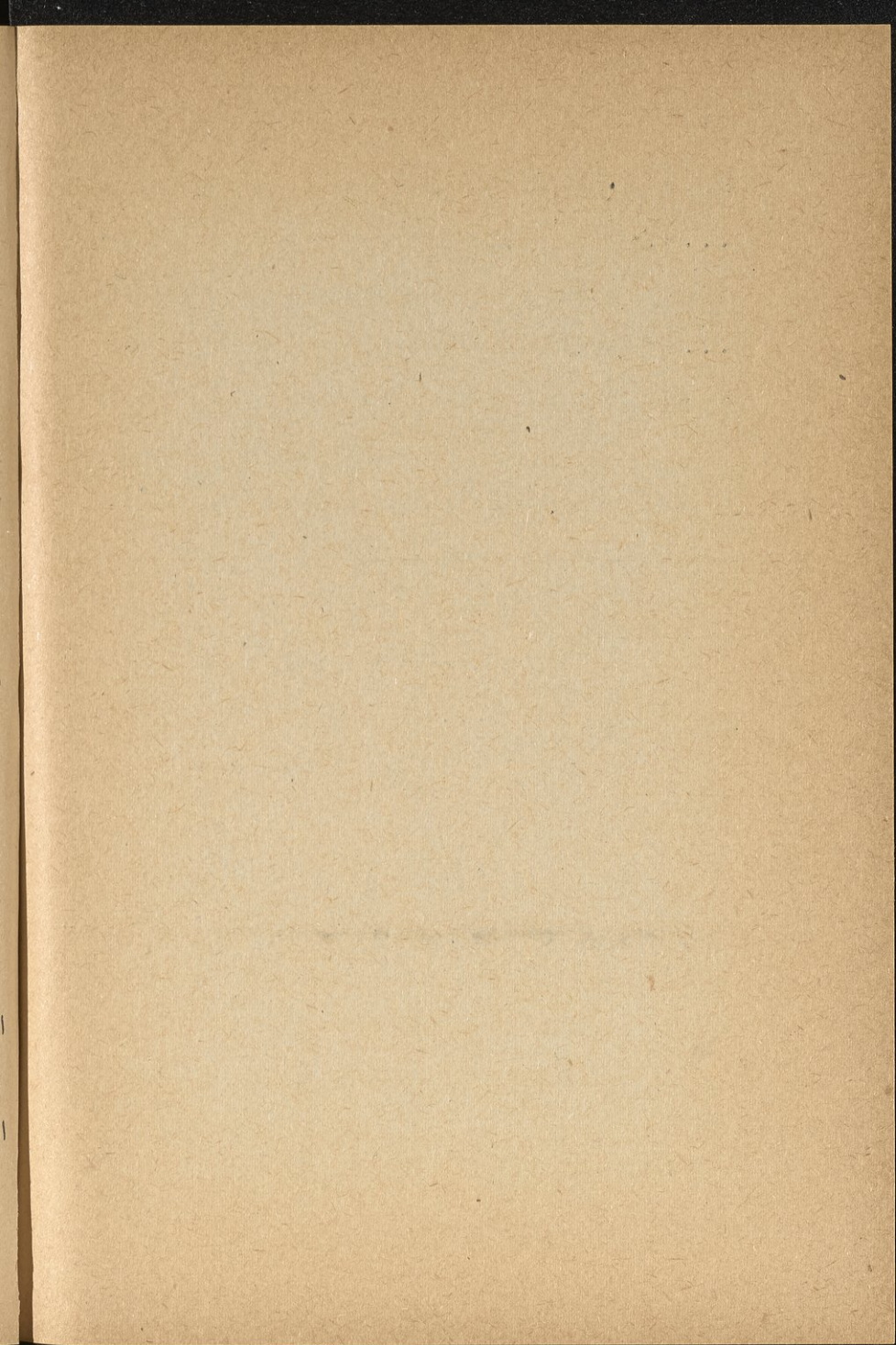
وعَلقتُ الصحيفة على هذا النبأ تعليقاً تناولتُ فيه حياة الأمير
الهندى ، فصورتها صورة مرقشة محشوة بالأكاذيب . . .

وختمت تعليقها مطبوعةً فى الإشادة بفن الأمير ، سخيةً له بأطيب
الأماني . . .

فوضعتُ الصحيفة جانباً ، تتخايل ابتسامة شاحبة على شفتي . . .
ثم وجدتُ يدي تدلف إلى أحد أدراج مكتبي ، عابثة بما يضم من
أوراق ، وكان من بينها مجلة قديمة العهد ، ورأيتنى أقلب صفحاتها ،

فوقعت عيني على نُبذة تُعلق بها المجلة على الرواية التي ظهر فيها « أبو على
الأرئيس » يوم بنى مسرحه الخشبيّ الوضع في حيّ « الحسين » ...
وجعلتُ أقرأ تلك النبذة ، فهالني ما فيها من نقد مرّ ، وتجريح
بالغ القسوة ، وبخيرية شديدة اللذع ، وألقاب ذميمة في غير رحمة ...
وكان ختام تعليق المجلة نداء حارّاً إلى رجال الأمن أن يسوقوا ذلك
المأفون إلى مستشفى المجانين !
ونهضتُ أشعل لفافة ، وقصّدت إلى النافذة ، أسيّمُ النظرَ في
الآفق ...

ما أكثرَ أمثال « أبي على » في الناس !
ما أحوجهم إلى أن يموتوا كما مات ...
وما أسعدهم بأن يُبعثوا كما بُعِث !



حَرْبٌ خَاطِفَةٌ

١ - برقية إلى الأنسة ع . ك بجاردن سنى بتاريخ أول سبتمبر :

« أحبك !

هى كلمة "واحدة" لا أقولُ غيرها ، جَرِيًّا على أصول المنطق الحديث
وملابسات العصر الحاضر .

أحبك ...

كلمة "حوت" عناصر السرعة والتركيز .

نعم ، أحبك ، ولا تعيننا التفاصيلُ الآن ! م . ن »

٢ - برقية إلى الأنسة ع . ك بجاردن سنى بتاريخ ٢ سبتمبر :

« إن حب سنة ١٩٤٣ حبٌّ يهبط على القلب كما تهبطُ القنبلةُ من

الطائرة قاذفة المفرّقات ، وهذا هو شأن حبي .

رأيتك فى جهة ما ، وفى ساعة من ساعات الحياة . ومن ثمَّ تكلم

القضاء ، فأصدرَ حكمه الذى لا يُردّ .

م . ن »

أهواك يا معبودنى !

٣ - برقية إلى الآنسة ع . ك بجاردن ستي بتاريخ ٣ سبتمبر :
 « إننى أعرفك ، ولكن أنت لا تعرفينى . ماذا يُهم ؟ !
 وقد أحبيتك ، وستحبينى ...
 إنها إرادتى ، وهى أيضاً إرادتك . وإرادتنا كلينا هى إرادةُ القدر !
 م . ن »

٤ - برقية إلى الآنسة ع . ك بجاردن ستي بتاريخ ٤ سبتمبر :
 توقعى غداً أمراً خطيراً .
 مفاجأةٌ ليس بعدها مفاجأة ...
 لا تفاصيلَ اليومَ .
 أعبدُكِ يا غرامى الدائمَ !
 م . ن »

وفى اليوم التالى وقفَ أمام باب الشقة « بجاردن ستي » شابٌ مهندَمٌ
 معطرٌ، رشق وردةً حمراءَ فى عُروّةِ سُترته، وحمل طاقةً من الأزهار
 الفوّاحة مُعدّةً لغزو القلوب .
 وُفتح الباب ... وظهرتْ على عَنتيه غادةٌ رائعةُ الحسن فى
 منامةٍ حريرية هفهافة ، فألقتْ على الشاب نظرةً فاحصةً من طرفها
 الكحيل ذى الأهداب المتراسة الطويلة ، ثم قالت :
 حضرتك بلا ريب م . ن صاحبُ البرقيات .

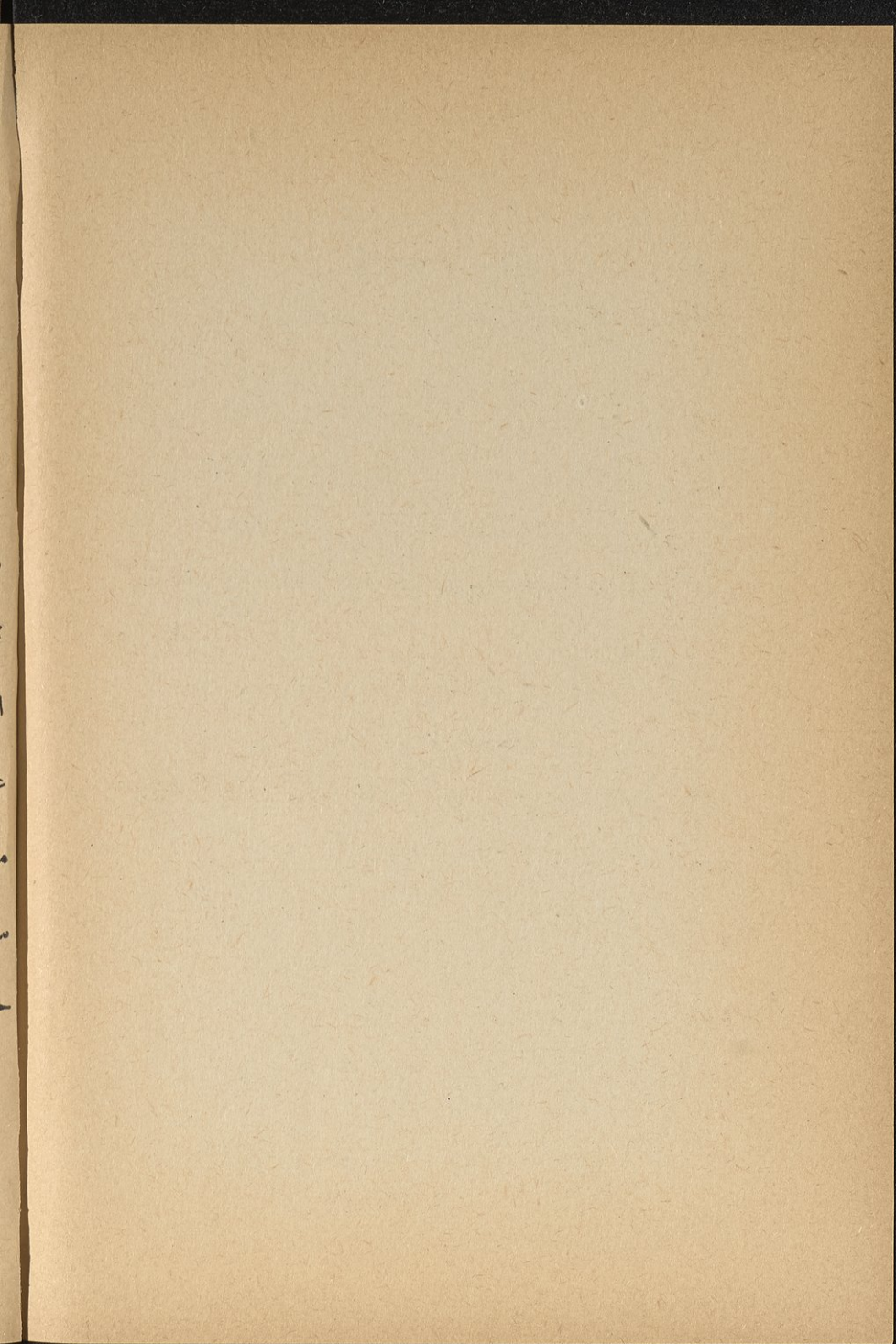
— أنا نفسي !

— تريدُ طبعاً أن تعلمَ ردى على هذه البرقيات وفقَ مَنْطقك الحديث وملايسات العصر الحاضر ، حيثُ السرعةُ والتركيزُ في الأقوال والأفعال من ألزم الواجبات !
— لا تُفضُّ فُوك .

— ها هو ذا رَدَى ...

وارتفعت يدُ الحسناء ، وسرعانَ ما مَهبطتْ على صُدُغِ الفقى !
وإذا بفرقة تَرنّ متعالية ، فتتجاوَبُ بها الحيطان ، تَبِعُها في الحال دَوَى باب يُقفل !

وكان م . ن حادّ الذكاء ، على اطلاع واسع بخطط الحروب الحديثة ، فعلمَ أن الهجومَ الخاطفَ إذا لم يصادفه انتصارٌ حاسم انقلبَ إلى هزيمة فاصلة تتطلبُ التقهقر العاجلَ فى انتظام .
فأطلق ساقيه للريح — كما يقولون — وجعل يَقيِفُ على الدرجِ مثنى وثلاث ورباع ! ...



فهرست

صفحة	
٥	محمد افندی صل علی النبی
٨٣	زهرة المرقص
١٠٣	إحسان لله
١٢١	زوج وضرتان
١٤٥	ثلاثی عمر الحیام
١٦٥	ابنة إیزیس
١٧٥	عند ما تضحك الأقدار
١٨٩	موعد
٢٠١	سر الأمير الهندی
٢١٥	حرب خاطفة

تفصیل

مجموعہ

مجموعہ اول

•

مجموعہ دوم

•

مجموعہ سوم

(مجموعہ اول و دوم)

•

مجموعہ چہارم

•

مجموعہ پنجم

•

مجموعہ ششم

•

مجموعہ ہفتم

•

مجموعہ ہشتم

(مجموعہ اول و دوم)

•

مجموعہ نہم

(مجموعہ اول و دوم و سوم)

مجموعہ دہم

مجموعہ یازدهم

•

مجموعہ چہاردهم

مجموعہ پانزدهم

•

مجموعہ شانزدهم

مجموعہ ہفدهم

•

مجموعہ اٹھارہم

•

مجموعہ نوزدهم

مجموعہ بیستم

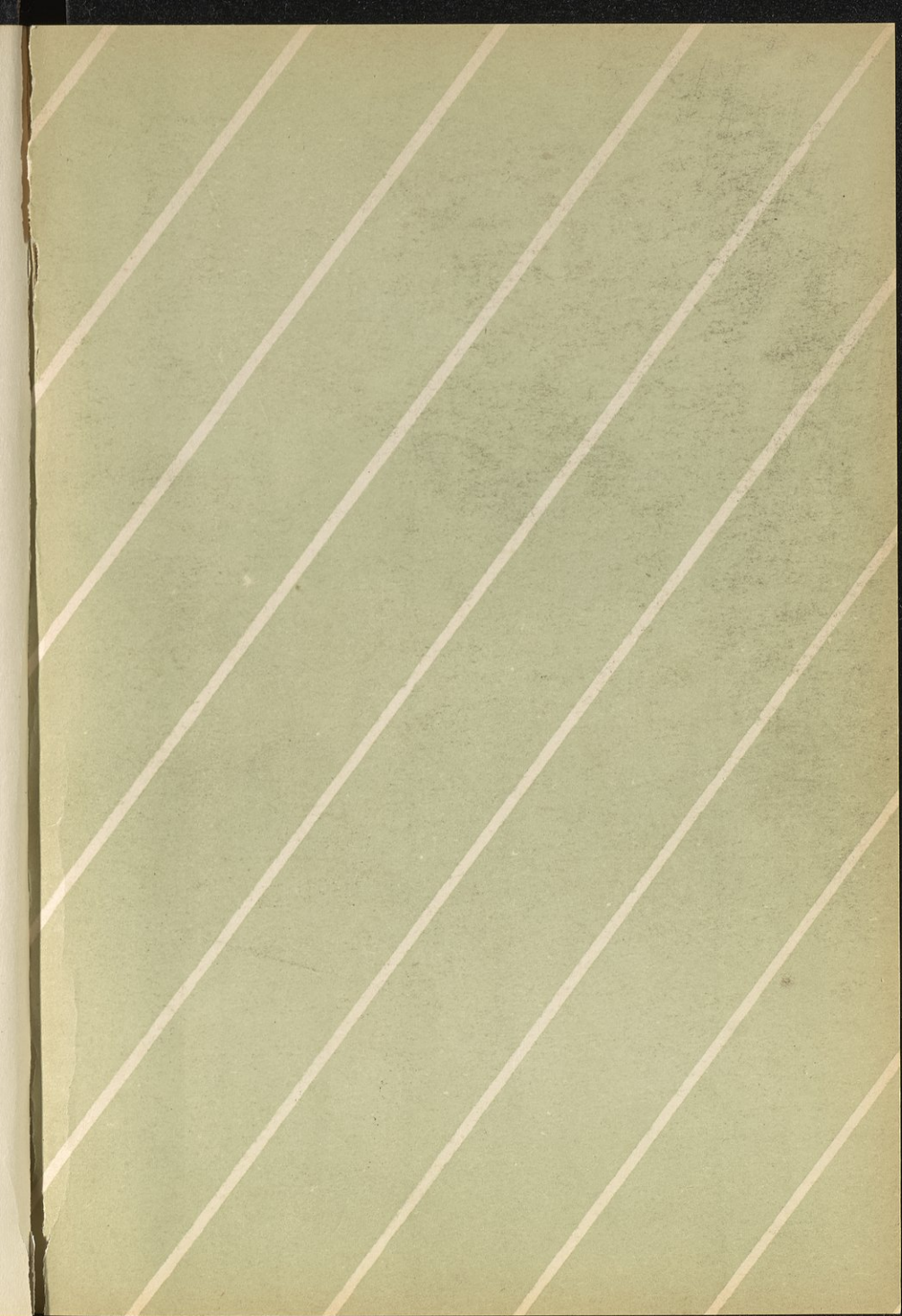
•

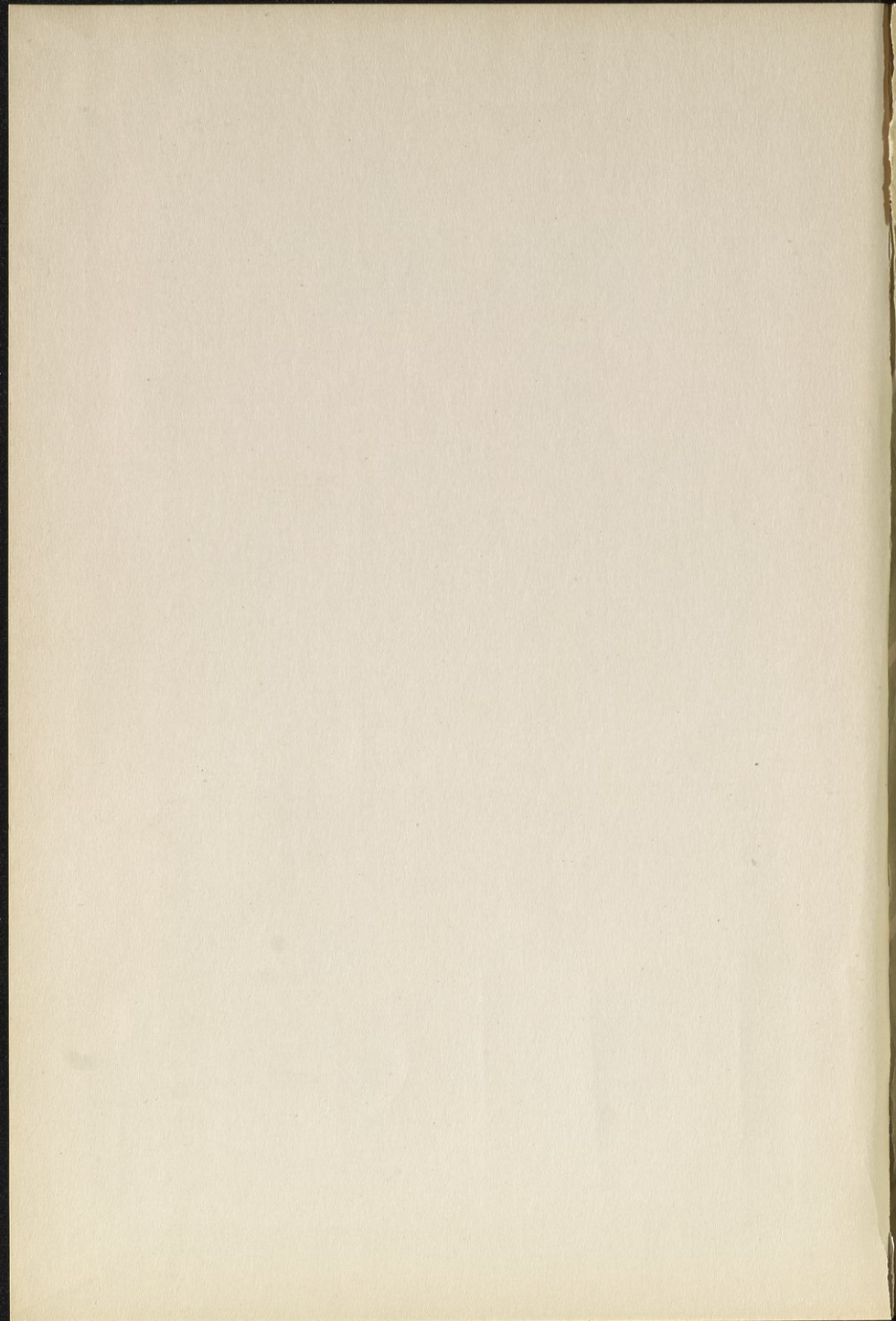
مجموعہ بیست و یکم

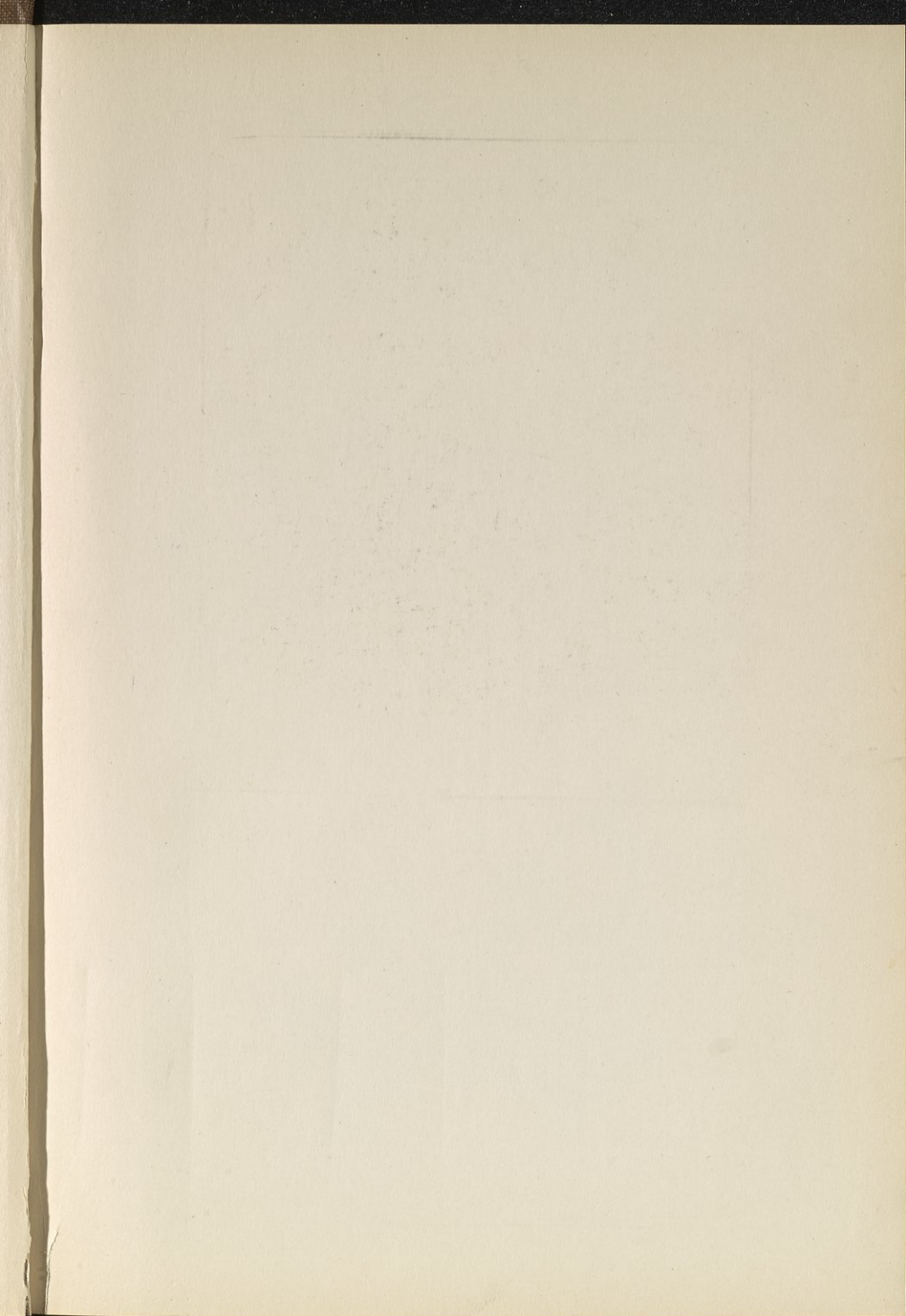
•

مجموعہ بیست و دوم

مجموعہ بیست و سوم







893.7T136

M3

BOUND

SEP 19 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58880631

893 7T136 M3

Ihsan lillah ... wa-